

روايات
مصرية
للحبيب

فارس الأندلس الهاربة



أبو بدر
نبييل فاروق

Abo Badr

١ - تحت المطر ..

بدأ ذلك الصباح على نحو غير مألوف ، بالنسبة لهذه
الفترة من العام ، في مملكة (غرناطة) ، آخر معاقل
العرب في (الأندلس) ، فقد تجمعت السحب وتكاثفت ،
فبيل الفجر بقليل ، وحجبت أشعة الشمس عند الشروق ،
ثم لم تلبث الأمطار أن انهمرت في غزارة ، وراحت تروى
ربوع (غرناطة) وحقولها الخضراء ، وتصنع أنهاراً
صغيرة ، تجري من الثباب إلى الوديان ، فتضاهر
وتمتزج ، لتصنع برناً وبحيرات ، لا تلبث الأرض أن
تتصنها ، وتروى بها الأعشاب والأشجار الباسقة
البانعة ..

وهناك .. في ذلك المعسكر الصغير ، خارج مدينة
(غرناطة) ، أزاح معتم السلاح (مهاب) سائر الخيمة
الكبيرة في حرص ، وتطلع إلى المطر المنهمر ، وهو
يتمتع في شيء من الضيق :

- يبدو أن الأمطار ستستمر لفترة طويلة ..
يا للخسارة !

هو الشيخ الحكيم رأسه في بطاء ، وهو يقول :
- لا تغضب من الطبيعة يا ولدي ، فهي صنعة الخالق
عز وجل ، وهو أحكم بخلقه وأعدل .

من بين أوراق التاريخ جاء ..

من قلب الحضارة والأمل ظهر ..

من أجل العدالة والحق كان ..

رمن الماضي والحاضر والمستقبل ..

الفارس ..

فارس الأندلس ..

د. تيسيل نازوق

غمغم (مهاب) في حرج :
 - إننى لم أغضب يا سيدى ، ولكن ..
 توقف عن إتمام عبارته ، وبدأ مرتبكا بعض الشيء ،
 فسأله الشيخ في هدوء ووقار :
 - ولكن ماذا يا (مهاب) ؟
 تضرع وجه (مهاب) بحمرة خفيفة ، أخفتها لحيته
 الكثيرة ، ومط شفتيه في حرج وارتباك ، فقلقه (فارس)
 ضاحكا ، وهو يقول :
 - ولكن (مهاب) جاع يا سيدى .
 ابتسم الشيخ مغمضا :
 - آه .. هذا هو السبب إذن .
 هتف (مهاب) في حدة :
 - لا .. ليس هذا هو السبب .
 ثم ازدرد لعابه ، واستطرد في شيء من الأسى :
 - يمكننى أن أسد جوعى بثمرة أو ثمرة من الفاكهة .
 أطلق (فارس) ضحكة مرحة أخرى ، فأضاف (مهاب)
 في عصبية :
 - ثم إننى أبغض البقاء طوال النهار داخل الخيمة
 كالسجين .
 ابتسم الشيخ ، وقال :
 - فلتحمد الله (سبحانه وتعالى) ، على أننا سكننا

الشمع على قماش خيامنا ، وإلا لانهمرت الأمطار داخلها ،
 كما تنهمر خارجها .
 اعتدل (فارس) ، وقال :
 - هذا صحيح يا سيدى ، فالشمع الذى طلبنا به الخيام ،
 يجعل الأمطار تنزلق منها ، فلا تبتل أو تنهار ، إنها فكرة
 عبقرية بحق .
 رفع الشيخ سبابته ، وهو يقول :
 - بل هو العلم يا ولدى .. العلم يجعلك تتفوق على
 خصومك ، وتتلقى نواب الدهر والطبيعة ، لو أنك مزجت
 بالإيمان الخالص ، ومخافة الله عز وجل .
 زمجر (مهاب) ، وهو يقول :
 - وماذا عن القوة ؟
 التفت إليه الشيخ ، وقال :
 - العلم قوة يا (مهاب) .
 مط (مهاب) شفتيه ، دون أن يجيب ، وإن شئت
 ملامحه عن عدم اقتناعه ، فنهض (فارس) ، وقال
 ضاحكا :
 - علوا يا سيدى .. عطشى (مهاب) يعجز عن التفكير
 بشكل جيد ، عندما تكون معدته خالية .
 قال الشيخ في هدوء :

- المعدة الممتلئة تعني رأساً فارغاً .
أطلق (فارس) ضحكة عالية ، واختطف قوسه
ونشابه ، وهو يقول :

- هذا لا ينطبق على (مهاب) .
قالها ، واتجه إلى سائر الخيمة ، فهتف به (مهاب) :
- إلى أين ؟

أجابه مبتسماً :
- سأحضر لك شيئاً يمكن شربه .. أنا أعرف مرادك .
بدت الفرحة في عيني (مهاب) لحظة ، ثم لم يلبث أن
كتمها خلف نظرة صارمة مصطنعة ، وهو يقول :
- لا .. لن تخرج في هذا المناخ الرديء ، من أجل ..
قاطعه (فارس) بسرعة :
- لا تحاول مني يا صديقي .. إنني أرحب في هذا ،
فلقد أوحشني الصيد والقنص .

هتف (مهاب) :
- في مثل هذا الطقس ؟! .. إنك لن تجد حيواناً واحداً
خارج حجره الآن .

ضحك (فارس) ، وقال :
- الحيوانات لا تخشى المطر مثلنا يا صديقي .
التفت (مهاب) إلى الشيخ ، وقال مستنكراً :
- سيدي .. هل ستسمح له بهذا ؟

توقف (فارس) ، وتطلع بنظرة متمائلة إلى الشيخ ،
الذي قال في هدوء رصين :
- دعه يذهب يا (مهاب) .

التفت حاجباً (مهاب) في دهشة ، وهو يحدق في وجه
الشيخ ، وهم يقول عبارة اعتراضية قصيرة ، ولكن مهابة
الشيخ ووقاره خلفا العبارة في حلقه ، فتمتم في صوت
متحشرج :

- كما تأمر يا سيدي .
ابتسم (فارس) في ارتياح ، وقال في مرح :
- أشعل النار يا (مهاب) ، واترك لعبك يسيل ،

وانتظر عودتي .
ثم انطلق في نشاط وحيوية إلى جواده (رفيق) ، الذي
وقف هائناً ساكناً ، تحت قطرات المطر ، وكأنما لا تشكل
له تقلبات الطبيعة أي إزعاج أو قلق ، ولكنه لم يلبث أن
اعتدل في حماس ، والتفت بعنقه إلى صاحبه ، الذي
هتف به :

- صباح الخير يا (رفيق) .. أشر يا صديقي ..
سنراول تدرجاتنا كالمعتاد .

وأمسك معرفة (رفيق) ببسراه ، ثم وثب على ظهره
في رشاقة ، ولم يكذب استقرار على متنه ، دون مرج أو
لجام ، حتى لكزه بركبتيه في بطنه ، وهو يقول :

- هنا يا صديقي .. انطلق .

رفع الجواد قائمته الأماميتين ، وأطلق صهيلًا حماسيًا قويًا ، وهو يضرب بهما الهواء ، والتمعت عيناه في جنل ، وكأنما كان ينتظر هذا النداء ويشتاق إليه ، ثم انطلق براكبه يدور حول الخيام الثلاث ، قبل أن ينهب الأرض نهبًا ، متجهًا إلى الدغل القريب ، والأمطار تفرقه مع صاحبه ، وتتناثر حولهما مع ضربات حوافره القوية .. وفي الخيمة الكبرى ، غمغم (مهاب) في قلبي :

- لماذا سمحت له بالذهاب يا سيدي ؟

أجابه الشيخ في هدوء رصين :

- إنه فارس يا (مهاب) .. وعلى الفارس أن يعتاد

القتال ، في كل مناخ ..

شعر (مهاب) بالخلل من نفسه ، لما تضمنه جواب

الشيخ من حكمة ومنطق ، وتمتم في خفوت :

- صدقت يا سيدي .

ثم أزاح سائر الخيمة ، فسأله الشيخ :

- إلى أين ؟

أجابه في تلقائية :

- سأشعل النار .. وأنتظره .

وابتسم الشيخ ..

وفي نفس اللحظة ، كان (فارس) يعدو بجواده وسط الدغل ، وهو يدير عينيه فيما حوله ، بحثًا عن فريسة تصلح لطعام الجميع ، وابتسم وهو يقول لجواده :
- من الواضح أن المهمة لن تكون سهلة أو بسيطة يا صديقي ، فالدغل يبدو خاليًا تقريبًا ، من كل ما يتحرك ، حتى أن ..

بتر عبارته بفتة ، عندما لمحت عيناه أرنبًا بريًا ، اختفى من الأمطار المنهمرة ، خلف جذع شجرة كبيرة ، فجذب لجام جواده ، وهو يهمس في انفعال :
- رويدك يا (رفيق) .. يبدو أنه هناك أرنبًا يزعم الانتحار .

أوقف جواده ، وهبط عن متنه في حذر ، وربت على عنقه بدعوه إلى الهدوء والصمت ، ثم جذب سهمًا من كنانته ، ووضع في قوسه ، وتحرك في بطم ، حتى اختفى خلف شجيرة قصيرة ، تطل على جذع الشجرة مباشرة ، وجذب وتر القوس في قوة ، وهو بصوب سهمه نحو الأرنب ، ثم أطلق السهم ..

وحدث أغرب شيء ممكن ..

لقد أخطأ (فارس) هدفه ..

أخطأه على الرغم من قصر المسافة ، وقوة القوس

والسهم ، ومهارته هو المعروفة ، حتى أن (رفيق) نفسه أطلق صهيباً اعتراضياً خافئاً ، عندما رأى الأرنب البري يعدو مبتعداً ، ولكن (فارس) لم يبد أدنى اهتمام بالأرنب الهارب ، ولا بالسهم الذي أخطأ هدفه ، وإنما أشار إلى نقطة بعيدة ، هاتفاً :

- هل رأيت ؟.. هل رأيت هذا يا (رفيق) ؟

ثم وثب على صهوة الجواد ، وهو يستطرد في حماس :
- يبدو أنه هناك من يحتاج إلينا يا صديقي .

لم يفهم (رفيق) ما يقوله فارسه ، ولم يدرك ما الذي رآه ، وجعله يفقد تركيزه في اللحظة الأخيرة ، ويخطئ إصابة هدفه ، ولكنه شعر بفريرته أن صاحبه يعاني انفعالاً قوياً مباغتاً ، فأطاعه بسرعة ، وانطلق يعدو إلى حيث يقوده .. أما (فارس) ، فقد تعلقت عيناه بشبح يعدو فوق الحشائش المبتلة ، وقد أخفى الضوء الخافت في الدغل والأمطار ملامحه ، وخلفه فارسان ، يحاولان اللحاق به واقتناصه ..

وكان من الواضح أن هذا الذي يعدو امرأة ..

امرأة يطاردنها رجلان ..

وهذا يقلق (فارس) دائماً ، ويثير حنقه واشمئزازه .. أن يقاتل الرجال النساء ..

ولكن هذا لم يكن السبب الوحيد ، الذي دفع (فارس) للانطلاق بهذا الحماس ..

كان هناك سبب أكثر قوة ..

فالرجلان اللذان يطاردان المرأة لم يكونا من أهالي (غرناطة) ..

إنهما فارسان ..

فارسان قشتاليان ..

★ ★ ★

أطلقت المرأة صرخات قصيرة متتابعة ، تموج بالرعب والفرع ، وهي تعدو أمام الفارسين ، اللذين راحا يلوحان بسيفيهما ، وهما يطاردانها ، ويلتفان حولها ، في محاولة لحصارها واقتناصها ، وبطلقان صيحات ظافرة ساخرة ، وأحدهما يهتف بزميله :

- تذكر ألا تصيبها بجروح أو كدمات .. نريدها سليمة معافاة .

فهذه زميله ضاحكاً ، وهو يقول :

- هل توصيني ؟.. كيف لي أن أئلف هذا الجمال ،

وهذه الفتنة المجسمة ؟!

لهتت المرأة في تهالك ، وقد أنهكها التعب ، وتلاحقت أنفاسها ، وتصاعدت ضربات قلبها في شدة ، حتى لم تعد تحتمل ، فتوقفت لحظة ، ثم هوت فوق العشب المبتل ،



وانفجرت باكية ، وهي تضرب الأرض بقبضتها في مرارة
ويأس .. وجذب الفارسان عناني جواديهما ، وتألق الظفر
في عيونهما ، وقال الأول :

- لم يكن الأمر يستحق كل هذا العناء .
هز الثاني كتفيه ، وقال بابتسامة أشبه بابتسامة
الذئاب ، وهو يهبط عن صهوة جواده :

- احتفظ بهذا الرأي لنفسك .
ثم جذب المرأة من شعرها في قسوة ، وهو يستطرد :
- إنني أدفع عمري من أجل فاتنة مثلها .
ثم يكد يتم عبارته ، حتى ظهر (فارس) على متن
جواده ، وهو يهتف في غضب :

- استعد للدفع إذن أيها القشتالي .
اعتدل القشتالي ، واستل سيفه في سرعة ، وشاركه
زميله فعلته ، واستقبل الاثنان (فارس) في وحشية
وشراسة ، ولكن (فارس) استل سيفه بدوره ، وانقض
على القشتالي الذي يمتطي جواده ، والذي رفع ترسه ليتقى
الضربة ، هاتفا :

- ابتعد أيها العربي ، وإلا ..
هوى (فارس) بسيفه على المجن الذي يحمله
القشتالي ، وهو يقول :
- وإلا ماذا ؟

ثم هوت فوق العشب الميت ، وانفجرت باكية ، وهي تضرب الأرض
بقبضتها في مرارة ويأس ..

وكانت ضربته من القوة والشدة والمهارة ، حتى أنها
زلزلت كيان القشتالي ، وجعلت جسده كله يهتز في قوة ،
وأفقدته قدرته على القتال لحظة ، تحرك خلالها (فارس)
في حنكة ، وأدار سيفه في ذكاء رائع ، وضرب درع
القشتالي ، فمزق تلك الأربطة الجلدية ، التي تثبت الترس
إلى ذراعه ..

وفقد القشتالي سائرته ، في نفس اللحظة التي هاجم فيها
زميله (فارس) ، محاولاً طعنه بسيفه في معدته ، ولكن
(رفيق) تراجع في سرعة ، كأي جواد مدرب شجاع ،
وأطلق صهيقاً قوياً ، فاستدار (فارس) إلى القشتالي
الثاني ، ودفعه بقدمه في صدره بقوة ، ثم هوى على يده
بسيفه الفضي ..

وصرخ القشتالي ، والسيف يسقط من يده الجريحة ،
وانطلق هارباً ، ليثب على متن جواده ، ويعدو به هارباً ،
فتراجع زميله لحظة ، وهتف :
- اللعنة .

ثم جذب عنان جواده ، وانطلق به خلف زميله ،
ليشاركه فراره ، فصاح بهما (فارس) في غضب :
- إياكما ووظء تراب (غرناطة) مرة أخرى .

وراقبهما في حزم ، حتى غابا عن الأنظار ، ثم التفت
إلى المرأة ، وهو يقول في لهجة مهذبة :
- انهضى يا سيدتى .. لقد زال الخطر ، وأنت الآن في
يد أمينة .

أجهشت المرأة بالبكاء لحظات ، ثم نهضت في ببطء
بثوبها المبتل ، واستدارت تتطلع إليه بعينين محمرتين من
أثر البكاء ..

وانعقد حاجبا (فارس) في شدة ..
لقد كان يعرف هذه المرأة جيداً ..
وكان وجودها في هذا المكان مفاجأة ..
مفاجأة مذهلة .



٢ - المرأة ..

غالا ؟ ..

هتفت الملكة (إيزابيلا) ، ملكة (قشتالة)
(ليون) ، بتلك الكلمة في مزيج من الدهشة
والاستنكار ، في وجه الملك (فرناندو) ، الذي ابتسم في
برود ، وارتشف رشفة من كأسه ، وهو يقول :

- نعم .. (غالا) .. لماذا بدهشك هذا ؟

انعقد حاجبا (إيزابيلا) في شدة ، وهي تتطلع إليه
بنظرة متوترة ، ثم اعتذلت في كبرياء ، وقالت :

- لست أصدق هذا .

أطلق ضحكة ساخرة قصيرة ، وهو يقول :

- أنتقين بها إلى هذا الحد ؟

هزت رأسها في حزم ، وهي تقول :

- ليست مسألة ثقة .. (غالا) وصيقتي الخاصة منذ
عشر سنوات ، وأنا أعرفها تمام المعرفة .. قد تكون
عصبية وعنيدة ، ولكنها ليست أبدا خائنة .

رمقها (فرناندو) بنظرة عجيبة ، ثم جرع كأسه كله ،
قبل أن يقول :

- هل تعلمين أنني طلبت منها إرسال رسالة عاجلة
بالحمام الزاجل ، إلى بعض أصدقائي ، لمنعها من الاشتباك مع
العرب ، ولكنها لم تفعل ، وإنما خدعتني بإرسال حمامة
أخرى إلى معسكر آخر بعيد ؟

قالت (إيزابيلا) :

- ربما أخطأت لاختيار الحمامة المطلوبة .

ابتسم في سرورية ، وهو يقول :

- (غالا) ؟ .. أنت واثقة من أننا نتحدث عن

الشخص نفسه .

عاد حاجبا (إيزابيلا) يعتقدان مرة أخرى في شدة ،

وهي تقول :

- اسمع يا (فرناندو) .

زمرر قائلا في غلظة :

- خاطبيني بلقب (مولاي) .

تراجعت في حركة غاضبة ، ولكنها كتمت غيظها كله

في أعمالها ، وهي تقول :

- فليكن يا (مولاي) .. إنك لن تنجح أبدا في إقناعي

بأن (غالا) قد هربت من القصر ، خشية عقابك ، وأنها

تجاوزت كل خطوطنا ، حتى أمكنها الوصول إلى

(غرناطة) .. هناك أمر ما خلف هذه الخدعة القذرة .

قال ساخرًا :

- أمر مثل ماذا ؟

قالت في حدة :

- لست أدري بعد .

ثم أردفت غاضبة :

- ولكننى سأتوصل إليه ، أن عاجلاً أو آجلاً .

قال فى سخرية :

- حطاً ؟

ثم انعقد حاجباه فى صرامة ، وهو يستطرد :

- فكرى كما يحلو لك يا عزيزتى (إيزابيلا) ، ولكن كل

ما لدى لأخبرك به ، هو أن (غالاً) هاربة بالفعل ، ولقد

أصدرت أوامرى بمطاربتها بلا رحمة ..

واعتدل ليشذ قامته ، وهو يضيف فى حزم :

- وحتى آخر الدنيا .

ولم يكن من الممكن أن تناقشه (إيزابيلا) ، بعد

ما حسم به الأمر ، ولكنها ظلت تشعر فى أعماقها أنه هناك

سر يختلج خلف فرار (غالاً) ..

سر غامض ..

★ ★ ★

مط (مهاب) شفتيه فى تملل ، وهو يتطلع إلى

الأفق ، ويغمغم محققاً :

- أين ذهب هذا الفتى ؟.. لقد أشعلت النيران مرتين

حتى الآن ، وما هى ذى تكاد تتطفئ ، ولم يظهر بعد .

أجابه الشيخ من داخل الخيمة :

- العثور على صيد ثمين ليس بالأمر السهل ، فى مثل

هذا الطقس .

قال (مهاب) فى تنمر :

- هذا ما أشرت به ، ولكنكما آ

بئر عبارته دفعة واحدة ، على نحو أثار قلق الشيخ

داخل الخيمة ، فسأل :

- ماذا حدث ؟

مضت لحظة من الصمت ، ثم أجابه (مهاب) بصوت

يحمل الكثير من الدهشة :

- يبدو أن ذلك الفتى قد عثر على صيد جديد ، ولكنه

لا يصلح - على الأرجح - للأكل .

كانت العبارة كافية لإثارة اهتمام الشيخ وفضوله ،

فأزاح ساتر الخيمة ، وأطل برأسه منها ، ثم اقترب حاجباه

فى مزيج من الدهشة والقلق ، عندما رأى (رفيق) عانداً

إلى المصكر ، وعلى متنه (فارس) ، وامرأة شقراء

فاتنة ، تجلس خلفه ، وقد ألقت قدميها إلى يمين الجواد ،

وأحاطت وسط (فارس) بذراعيها ..

وفى هدوء ، اقترب (فارس) من المصكر ، ورفع يده

الممسكة بأننى أرنب جهلى ، وهو يقول مبتسماً :

- ها هو ذا الطعام يا صديقى (مهاب) .. ضع مزيداً من

الحطب فى النار ، وسنتناول جميعاً وجبة شهية بعد قليل .

ثم عاون (غالا) على الهبوط ، ووثب بدوره عن ظهر الجواد ، وهو يشير إليها ، قائلاً :

- أقدم لكما (غالا) . الوصيفة الخاصة للملكة (إيزابيلا) .

تطلع إليها الاثنان لحظة في صمت ، ثم قال الشيخ في هدوء رصين :

- أهلاً بك على الرحب والسعة يا بني .

والتفت إلى (مهاب) ، مستطرذا :

- هيا يا ولدى .. أعذ الطعام لضيفتنا .

لم يبد (مهاب) اعتراضاً ، وهو يعذ الأرنب البري ،

ويبدأ في شمه ، في حين أشار الشيخ بيده ، وهو يقول :

- اذهبي لتحصلي على قدر من الراحة يا بني .

وستجدين ثوباً جافاً ، من ثياب (فارس) .

غمغمت (غالا) ، وهي تسرع إلى خيمة (فارس) :

- أشكرك يا سيدي .. أشكرك كثيراً .

ارتفعت على شفطي الشيخ ابتسامة باهتة ، في حين

راح (فارس) يروي له ما حدث بكل التفاصيل ، واستمع

إليه الشيخ في اهتمام ، ثم قال :

- أحسنت فعلاً يا ولدى .

مط (مهاب) شفتيه ، وهو يقول :

- لن أتق أبداً بهذه المرأة .. إنها قشتالية ، والذئاب لا تتجب حملاتنا .

قال الشيخ في هدوء :

- إنها ستقضي الليل في معسكرنا ، حتى تجف ثيابها ،

ثم نذهب بها إلى الحمراء (*) مع مشرق شمس الغد .

تنهد (مهاب) في ارتياح ، وقال :

- هذا أفضل .

ثم أضاف في حدة :

- وإن كنت أشعر أن الليل سيحمل لنا الكثير .

أجابه (فارس) في حزم :

- اطمئن .. سأتولى الحراسة بنفسي طيلة الليل .

نقل الشيخ بصره بينهما ، ثم قال :

- فليكن يا ولدى .. فليكن .

ولكنه ، في أعماقه ، كان يشعر أيضاً أن الليل سيحمل

الكثير ..

والكثير جداً ..

★ ★ ★

(*) الحمراء مجموعة من الابنية ، مقامة على ربوة تطل على (غرناطة) ، بنيت فيما بين (١٢١٨ - ١٣٥٤) ، وكانت قلعة وقصراً الملوك (بني نصر) ، أو (بني الأحمر) ، وقد لعبت القلعة دوراً هاماً في المنازعات التي جرت حول الاسرة في عهدهم . وتعتبر الحمراء أجمل أمثلة العمارة الإسلامية في (الاندلس) . وبها ساحة السباع ، وبافورة السباع ، ولقد كان سقوطها في يد الأسبان إيذاناً بانتهاء الحكم العربي في حصار (الاندلس) .

كاد (فارس) يقسم بأنه لم ير في حياته كلها ، من هي
أكثر فتنة وجمالاً من (غالا) ، بعد أن صلّفت شعرها ،
واستعانت بنضارتها ، وحصلت على قسط وافر من النوم ،
على الرغم من أنها كانت ترتدى ثيابه هو الخشنّة ،
لا ثيابها الوردية الحريريّة الناعمة ..

ولكن (فارس) لم يتطّلع طويلاً إلى (غالا) ، وإنما
تحاشى النظر إلى فتنتها الطاغية طوال الوقت ، وهي
تتناول الطعام معهما ، أو تصفّ شعرها الأشقر الطويل
أمام خيمته ، بل أنهمك مع (مهاب) في تدريبات قتالية
طويلة ، بعد أن توقّف المطر عن الانهمار ، حتى مالت
الشمس إلى المغرب ، وتوقّف صليل السيوف ، وارتسمت
على شفتي (مهاب) ابتسامة مرهقة ، وهو يربّت على
كتف (فارس) ، قائلاً :

- أحسنت يا فتى .. ضرباتك اليوم قوية وحاسمة .

أجابه (فارس) ، وهو يعيد سيفه إلى غمده :

- وضرباتك كذلك .

ضحك (مهاب) ، وهو يقول :

- ضرباتى ؟! .. لك لم تر ضرباتى ، فى زمن الصبا
والشباب .

ابتسم (فارس) ، وهو يقول :

- لقد فانتى هذا .

ثم اعتدل فى وقفته ، وهو يستطرد فى حزم :

- يمكنك الخلود إلى النوم ملء جفنيك ، وسأتولى أنا

مسنولية الحراسة الليلية .

تطّلع إليه (مهاب) لحظة فى صمت ، ثم قال :

- ولعلك الله يا فتى .

أما الشيخ ، فالتفت إلى (فارس) ، وقال فى حزم :

- كن يقظاً .

غمغم (فارس) :

- اطمئن يا عماء .

كان قول الشيخ بالذات يدهشه ، ويثير قلقه وحيرته ،

فلم يحدث قط ، منذ صباه ، أن طلب منه هذا المطلب ، فى

ليلة تولى فيها مسنولية الحراسة ، مهما بلغت خطورة

الظروف المحيطة ..

ولكنه كتم مشاعره فى أعماقه ، واغتسل ، وتناول

طعام العشاء مع الجميع ، ثم انتظر حتى أوى كل منهم إلى

فراشه ، ثم اتجه إلى رهوة عالية ، واستل سيفه الفضى ،

ووضعه إلى جواره ، ثم جلس يراقب النجوم فى صمت ..

وكانت الغيوم قد انقشعت ، وعاد الطقس إلى سابق

عهد ، وتألّقت النجوم فى السماء كمصابيح مزينة ،

مما خلّب لبه ، وبعث فى نفسه الهدوء والارتياح ..

ولكن فجأة ، نادت إلى جواره حركة خافتة ، جعلته
يحمل سيفه ، ويقلز متحفظاً ، ولكنه سمع شهقة أنثوية ،
قبل أن يتبين وجه (غالا) ، وهي تقول في اضطراب :
- رويدك .. إنه أنا .

عقد حاجبيه في صرامة ، وهو بعيد سيفه إلى غمده ،
قائلاً :

- ما الذي أتى بك إلى هنا ؟.. لماذا غادرت خيمتي ؟
ارتسمت على شفتيها الجميلتين ابتسامة امتنان ، وهي
تقول :

- أريد أن أشكرك ، على ما فعلته من أجلى .

غمغم في جمود :

- لقد فعلت ما يتحتم على فعله .

قالت في هيام :

- وهذا يستحق الشكر

تطلع كل منهما إلى عيني الآخر لحظة ، ثم أشرع
(فارس) بوجهه ، قائلاً :

- عودي إلى خيمتك .

قالت في رجاء :

- ألا يمكنني البقاء قليلاً ؟

شعر بالكثير من القلق والتوتر في أعماقه ، وهم برفض
مطلبها ، لولا أن أضافت في ضراعة مستكينة :
- أرجوك .

صمت بعض الوقت ، ثم قال في صرامة .
- هذا شأنك .

تهللت أساريرها ، ولكنه تركها واقفة ، وعاد يجلس
فوق الربوة ، فابتسمت لحظة ، ثم جلست إلى جواره ،
وهمست :

- ألا تريد أن تعرف ، لماذا هربت من (قرطبة) ؟

قال في لهجة جافة :

- لو أردت إخباري لفعلت .

تنهدت ، قائلة :

- لقد أصدر الملك (فرناندو) أمراً بإعدامي .

عقد حاجبيه في دهشة ، فأضافت بسرعة :

- من أجلك .

- من أجلى أنا ؟

أومأت برأسها إيجاباً ، واقتربت منه أكثر ، وهي
تهمس :

- نعم .. من أجلك أنت .

شعرت بتوتره لاقترابها منه على هذا النحو ، فتراجعت
قليلاً ، مستطردة :

- هل تذكر قتالك مع (ماريو) ؟.. (الفارس
الأسود) .. أيامها طلب مني الملك أن أرسل رسالة



قالت لي حماس
- لأنني أردت أن تنصير

بوساطة الحمام الزاجل ، إلى المعسكر الجنوبي ، لتحذير
الفرق الثلاث ، التي كانت في طريقها لعبور حدودكم ،
ولكنني خدعته ، وأرسلت الرسالة بوساطة حمامة أخرى ،
لا شأن لها بالمعسكر الجنوبي ، فلم يتم تحذير الفرق
الثلاث ، وعبرت حدودكم ، فأبدتموها عن آخرها

سألها في حيرة :

- ولماذا فعلت هذا ؟

قالت في حماس :

- لأنني أردت أن تنصير .

عقد حاجبيه مرة أخرى ، وهو يقول .

- لماذا ؟

ابتسمت في دلال ، ورفعت أناملها تتحسس وجهه .

هامة :

- ألم تفهم بعد ؟..

كانت أصابعها ناعمة ، وأنفاسها حارة ، وراحتها

العطرية تدبر راس اعني الرجال ، و .

- من أين أتيت بالعطر ؟..

ألقي (فارس) عليها السؤال بفتة في صرامة ،

فتراجعت بحركة حادة ، وتطلعت إليه بنظرة دهشة

ساخطة ، قبل أن تقول في حدة :

- أي عطر ؟

٣ - صليل السيوف ..

شهقت الأميرة (جميلة) ، ابنة أمير (غرناطة) ،
وهي تهب من فراشها ، ووضعت يدها على صدرها ، وهي
تسعل في شدة ، فأسرعت إليها وصيفتها ، وهي تقول في
جزع :

يا بك يا مولاتي ؟ .. ماذا أصابك ؟

أشاحت الأميرة بوجهها ، لتخفي خيطاً من الدموع ،
انصرفت .. جنتها ، وهي تقول :

- لا شيء .. شيء .. عودي إلى النوم .

حملت الوصيفة مصباحاً ، ودنت منها قليلاً ، ثم هتفت
منزعجة :

- مولاتي .. إنك تبكين .

هتفت بها الأميرة (جميلة) :

- عودي إلى النوم .

ثم أجهشت فجأة بالبكاء ، فاحتوتها الوصيفة بين
نراعيها في حنان ، وهي تقول :

- ماذا أصابك يا بنتي ؟ .. بل ماذا دهاك ؟ .. أهو
كابوس ثقيل ؟

تركت (جميلة) رأسها يسترخي على كتف وصيفتها ،
التي ربتها منذ وفاة أمها ، وقالت في مرارة :

- لبيته كان كذلك .

هتفت بها الوصيفة في لوعة :

أشار إليها ، قائلاً في حزم :

- هذا الذي يداعب أنفي .

قالت في توتر :

- إنني أحتفظ به دائماً .

قال في شك صارم :

- عجباً ! .. لست أتخيل هارباً من حكم بالإعدام ، يفكر

في حمل زجاجة عطر معه .

قالت في عصبية :

- هذا لأنك لست امرأة .

قال في بطء :

- أو لست مخادعاً .

التفت إليه في حدة ، وقالت :

- كيف تقول هذا ، وأنا لك

ثم بنرت عبارتها بفتة ، واتسعت عيناها ، ثم صرخت :

- احترس .

ومع الحروف الأولى لصرختها ، قفز بحمل سبله ،

ويلتفت إلى حيث تشير وتنتظر ..

وعلى ضوء النجوم ، رأى (فارس) خمسة من الرجال

الأشداء ، ينقضون عليه بسيوفهم . وأحدهم يفلز نحوه ،

ويهوى بالسيف ..

على رأسه مباشرة .

★ ★ ★

- أ إلى هذا الحد ١٢.. أخبريني ماذا بك يا بنيتى ..
أفرغى مشاعرك فى أننى أدامك الله .
بكت الأميرة لحظة ، ثم قالت :
- (إنه) فارس) .

ابتسمت الوصيصة فى حنان ، وهى تقول :
- وماذا عنه ؟.. ألم يهلك والدك أنه سيتقدم لخطبتك ؟
اعتذلت الأميرة ، ومسحت شينا من دموعها ، وهى
تقول :

- ولكنه لم يفعل .. لقد مضى شهر على هذا القول ، ولم
يات (فارس) إلى هنا قط .

احتوتها الوصيصة مرة أخرى فى صدرها الحنون ، وهى
تبسم مشفقة ، وتقول :

- وا مولاتى .. الغد آت لا ريب .. لا تتعجلي الأمور .
قالت (جميلة) فى مرارة :

- ولكن (فارس) لا يشعر بهى قط .. إنه مشغول بمستقبل
(الأندلس) و (غرناطة) فحسب ، وأخشى أن .. أن ..

سألته وصيفتها فى حنان :

- ما الذى تخشين يا بنيتى ؟

التحيت (جميلة) لحظة ، ثم قالت :

- أخشى أن تكون هناك أخرى .
انمقد حاجبا الوصيصة ، وهى ترند :

- أخرى ؟

ثم ضمت (جميلة) إليها أكثر ، وهى تضيف :
- لا تجعلى هذا الخاطر يلتهمك يا بنيتى ، ما دام
لا يوجد ما يشير إليه أو ينم عنه .. ألقه خلف ظهرك
يا مولاتى ، ولن يلبث الغد أن يشرق ، ويكشف كل
الحقائق .

غاصت (جميلة) بين ذراعيها ، وهى تتمتع فى أسى :
- هذا لو جاء الغد .
نعم ..
لو جاء الغد ..

★ ★ ★

أطلقت (غالا) صرخة رعب ، وهى تشاهد السيف
الضخم ، الذى يهوى على رأس (فارس) وتصورت لحظة
أنه سيثبج الرأس إلى نصفين ، ولكن (فارس) وثب جانبا
فى مرونة ، واستقبل السيف على سيقه الفضى ، ثم أراحه
بعيدا ، وهو يهتف :

- الآن فقدتم عامل المفاجأة أبها الحقراء .
انقض عليه الرجال الخمسة ، ولكنه قاتلهم كأسد
هصور ، وراح سيقه يضرب هنا وهناك ، فى سرعة وقوة
ومهارة ، فى حين جرت (غالا) نحو المعسكر ، صارخة :
- النجدة .. النجدة ..

ولكن (مهاب) كان قد هب من رقاده ، مع صرختها
الأولى ، واندفع يوازر صديقه وتلميذه فى حزم وشجاعة ..

وبدا القتال ..

قتال عنيف شرس . بين خمسة من فرسان قشتالة ،
المتكرين في ثياب عربية ، وفارسين من عرب
(الأندلس) ..

ولكن الفارسين كانا يقاتلان في استماتة ، حتى أن
القشتاليين الخمسة تراجعوا أمامهم ، وأحدهم يهتف
بالأسبانية :

- إننا نقاتل وحشين .. تراجعوا يا رجال .. لقد فشل
الهجوم الليلي .

أسرعوا يلرون من أمام (مهاب) و (فارس) ، ولكن
الأخير صاح :

- لن نسمح لهم بالفرار .. أليس كذلك يا صديقي ؟
اندفع (مهاب) إلى جواده ، ووثب على منته ، هاتفاً :

- سنطاردهم حتى آخر الدنيا .
قلز (فارس) إلى جواده بدوره ، وهو يكمل :

- وحتى آخر رمل .
انطلقا بجوابيهما خلف جباد القشتاليين الخمسة ،
وتابعتهما (غالا) ببصرها لحظة ، ثم خفي قلبها في
قوة ، عندما لمحت ظلًا أسود ينطلق خلفهما ، من قلب
الظلام ، وشهقت هاتفة :

- إنه ذلك الزنجي .

أتى من خلفها صوت الشيخ الوقور ، يقول :

- نعم .. إنه (فهد) .

التفت إليه في حركة حادة ، ورمقته لحظة بنظرة
متوترة ، ثم لم تثبت أن ابتسمت في عصبية ، وهي تقول :

- آه .. هل اسمه (فهد) ؟

أوما الشيخ برأسه إيجاباً ، وهو يرمقها بنظرة طويلة ،
ثم سألها فجأة :

- كيف عرفت خيمة (فارس) ؟

حدقت في وجهه ، وهي تقول مأخوذة :

- ماذا ؟

كرّر في هدوء :

- كيف عرفت أن الخيمة التي اتجهت إليها ، هي خيمة
(فارس) بالتحديد ؟ .. لقد طلبت منك الذهاب إلى خيمة
(فارس) ، دون أن أشير إليها ، وكانت أمامك ثلاث
خيام ، فكيف عرفت خيمته بالذات ، واتجهت إليها
مباشرة ؟

صمتت لحظة ، ثم هزت كتفها ، وقالت في اضطراب :

- ضربة حظ .

هز الشيخ رأسه نظراً في هدوء ، وقال :

- كلا يا بنيتر .. إنك حتى لم تترندي .

التقى حاجباها في توتر . وهي تقول .
- لقد رأيت جواد (فارس) الى جوار خيمته .

قال في حزم :

- خطا (رفيق) يقف دائما الى جوار خيمتي أنا
بدا مزيج من العصب والتوتر على وجهها . وهي تقول :
- ما الذي تسعى اليه بالاضبط ايها الشيخ ؟ إنك تشك
في أمري . اليس كذلك ؟ تظن أن وجودي هنا مجرد
خطئة . للافقاع بكم . أو التخلص منكم . أنت لا تثق بي .
لمجرد أنني قشتالية . ألم تسأل نفسك إذن لماذا صرخت .
لاحذر فارسكم هذا . عندما هاجمه القشتاليون ^{١٥} .. لماذا
لم أتركهم يتخلصون منه في صمت وهدوء . مادام هذا هو
الفرض الرئيسي لوجودي هنا ؟

ثم انفجرت باكية . وهي تستطرد في مرارة .

- لماذا ؟ .. لماذا ؟

شعر الشيخ بشيء من الشفقة نحوها ، وغمغم

- الواقع يا بنيتي أن ..

وكدها حدثت بغية في شيء ما خلف ظهره . ثم شهقت

في قوة ..

وكانت مهاجأة جديدة ..

★ ★ ★

انطلق (فارس) و (مهاب) خلف القشتاليين الى
إصرار . وهوى (مهاب) بسيفه على حزام مرج أحدهم .
وهو يهتف :

- رويدك يا رجل .. إلى أين ؟ .. ألا تروى لك بلادنا ؟
سقط القشتالي عن جواده ، فعاجله (مهاب) بضربة
أخرى ، بصفحة السيف ، وأسقطه فاقد الوعي ، في نفس
اللحظة التي اشتبك فيها (فارس) مع قشتاليين آخرين .
وأطاح بسيف أحدهما بضربة قوية ، ثم طعن الثاني في
ثراعه . وهو يقول :

- بل إن بلادنا تروى لهم . ولهذا يسعون للسيطرة
عليها .

صرخ أحد القشتاليين :

- إنها بلادنا نحن .. أنتم استوليتم عليها .

ضربه (فارس) بسيفه . هاتفا :

- يمكنكم أن تحاولوا ، ولكن ..

أوقفته فجأة صرخة من (مهاب) :

- ريثا .. انظر يا (فارس) .

التفت (فارس) بسرعة ، إلى حيث يشير (مهاب) .

ثم التقى حاجباه في شدة ..

فهناك ، حيث يقع المعسكر الصغير ، كان الأفق يصطبغ
بوهج مخيف ، يتراقص في سرعة ، مما جعل (فارس)
يهتف .

- النيران -

وجذب معرفة (رفيق) ، وانطلق معه عاندا إلى
المعسكر ، وخلفه (مهاب) .. وراح الجوادان ينهبان
الأرض نهبا ، ومن خلفهما تعالى وقع حوافر جواد أسود ،
ذاب مع راكبه في الليل البهيم ..

وأخيرا ، بلغوا الربوة المظلة على المعسكر ..
وهتف (مهاب) في انزعاج شديد :

- اللعنة !

كانت النيران قد اضطربت في الخيام الثلاث ، وراحت
تلتهمها بمسرة مفرعة ، وتتراقص فوقها في ظفر
وشماتة ، فصاح (فارس) :

- الشيخ .

وهبط بجواده خطوة ، فإذا بجواد (فهد) الأسود
يتجاوزه ، وعلى منته الزنجر الصامت العملاق ، الذي بلغ
موضع الخيام في لمح البصر ، ثم وثب عن جواده ،
والنحم النيران المشتعلة غير آبه ، وراح يبحث عن
الشيخ ، حتى هتف به (فارس) :

- تراجع يا (فهد) .. إنه ليس هنا .

تراجع (فهد) ، والغضب يطل من عينيه عارما ، في
حين هتف (مهاب) في مرارة :

- لقد فعلوها بنا .. خدعونا .. ونحن سقطنا كالحمقى ،
عندما جذبونا لمطاردة بعضهم ، ثم هاجم البعض الآخر
المعسكر من خلفنا ، وقتلوا الشيخ .

زمجر (فهد) في غضب ، ولكن (فارس) صاح :

- لا .. إنهم لم يقتلوه ، وإلا وجدنا جثته .

صرخ (مهاب) :

- وأين تلك القشتالية اللعينة ؟ .. إنها المصنولة عن كل
هذا .. هي التي فعلت ذلك .

ولكن (فهد) تحرك فجأة ، وانقض على شجرة
قريبة ، فهتف به (فارس) :

- ماذا أصابك ؟

ورآه ينحني خلف جذع الشجرة الضخم ، ثم يجذب
جسدا ، شهق (فارس) لمراه ، فهتف (مهاب) في
هلع :

- هل .. هل عثرت على جثته ؟

هرع (فارس) إلى حيث (فهد) ، وهو يقول :

- إنها (غالا) .

أسرع إليه (مهاب) ، ورآه يحاول إيقاظ (غالا)
الفاقة الوعي ، والتي لم تثبت أن تأوّهت ، وغصفت :
- أين أنا ؟ .. ماذا حدث ؟

قال (فارس) في حدة :
- كنا سنلقى عليك السؤال نفسه .
فتحت عينيها ، وحذقت في وجهه ، قبل أن تهتف في
ارتياح :

- لقد هاجمونا ، وهربت أنا منهم .. الشيخ هو الذي
طلب مني الفرار ، وحاول التصدي لهم بحكمته ووقاره ..
ولكن .. ولكن ..

هوى قلب (مهاب) بين ضلوعه ، وهو يقول :

- هل قتلوه ؟

هتفت بسرعة :

- كلا .. إتهم لم يقتلوه .

ثم دفنت وجهها بين كفيها ، مستطردة :

- ولكنهم اختطفوه . لقد رأيتهم من مخبئي خلف
الشجرة ، وهم يفقدونه الوعي ، ثم يشعلون النار في كل
شيء ، ويتراجعون بسرعة ، في اتجاه الغرب .

اعتدل (فارس) ، وصاح برفيقه :

- أحضروا بعض المشاعل .. سنطارده هؤلاء الأوغاد .

أمسك (مهاب) نراعه ، وقال في حدة :
- انتظر يا فتى .. ليس هكذا تؤخذ الأمور .
ثم أشار إلى (فهد) ، مضيقاً في حزم :
- (فهد) .

لم يكن بحاجة إلى قول المزيد ، فقد وثب (فهد) إلى
جواده ، واختطف قطعة من الحطب المشتعل ، وانطلق
نحو الدغل القريب ، فهتف (فارس) :

- ولماذا لا تتبعه ؟

أجاب (مهاب) في صرامة :

- دعه يتأكد من خط السير أولاً .

ورمى (غالا) بنظرة قاسية ، وهو يستطرد :

- لقد استبقينا كل معلوماتنا من هذه القشتالية .

اتسعت عينا (غالا) ، وقالت في زعر :

- هل تشك في أمري ؟

أجابها (مهاب) في غلظة :

- بالتأكيد .. إننا لم نر القشتاليين على هذا النحو

الانتحاري من قبل ، فرجتازون حدودنا ، ويتوغلون في

أرضنا ، حتى يبنفوا هذا المصكر .. لماذا لم يفعلوا هذا

إلا بعد قدومك ؟ .. أليس لديك تفسير منطقي ؟

شحب وجهها ، وانكمشت في موضعها ، وأدارت

عينيها إلى (فارس) ، وكأنها تستجد به ، ولكن
(فارس) قال في صرامة :
- إننا ننتظر التفسير .

ارتجفت شفتاها ، وهفت بقول شيء ما ، ولكن (فهد)
ظهر في اللحظة نفسها ، وأشار إشارة ما إلى (مهاب) ،
فانعقدا حاجبا هذا الأخير ، وهو يتمتم :
- اللعنة !.. لقد محوا كل آثارهم .

قالت (غالا) في توتر شديد :
- صدقوني .. لقد اتجهوا نحو الغرب .. الشمال الغربي
بالتحديد .

التفت إليها (مهاب) في حدة ، وهو يقول :
- ولكنك لم تمنحينا التفسير بعد .. لماذا جاء
القشتاليون إلى هنا ؟

عادت تتكلمش ، قائلة :
- إنهم يطاردونني ؟
قال (فارس) :
- وهل يبذلون كل هذه المخاطرة ، من أجل استعادتك
فحسب ؟

ارتجفت صوتها ، وهي تقول :
- ربما ، فأنا أعلم الكثير .. الكثير جدا .

سألها (مهاب) في غلظة :
- وما الذي تعلمينه بالضبط ؟
خفت صوتها ، وارتجفت شفتاها بشدة ، وهي تقول :
- الخطة .. خطة الهجوم على (غرناطة) .
وتوالت المفاجآت كالسيل ..

★ ★ ★



ترافقت أضواء المصباح الصغير ، الذى تحمله وصيفة
الأميرة (جميلة) ، وهى تعذبه عبر رواق جناح الأميرة ،
وتعالى صوت أنفاسها على نحو واضح ، وهى تتوَلَّف أمام
حجرة نوم الأميرة ، وتلهث مغفمة فى الحال :
- رحماك يا إلهي .. ترى ماذا ستفعل تلك المسكينة ،
عندما يصلها الخبر .. أرجو أن أكون أول من يحمل إليها
التفسير ..

دلفت باب الحجرة فى رفق وحذر ، ثم خفق قلبها فى
عنف ، عندما رأت الأميرة جالسة ، إلى جوار نافذة
حجرتها المفتوحة ، تتطلع فى صمت وشحوب إلى شروق
الشمس ، فهتفت فى لوعة :
- مولاتى !

خيل إليها أن الأميرة قد تجمعت ، أو استحالت إلى تمثال
من المرمر الوردى ، عندما لم تستجب قط لندائها ،
فهرعت إليها ، تتحسس شعرها الأسود الناعم الطويل ،
وهى تكرر فى خفوت :
- مولاتى !

انتهت فى هذه اللحظة فقط إلى ذلك الخط من الدموع ،
الذى يسيل من عيني الأميرة ، وهى تقول فى مرارة :
- لقد رأيت كل شيء يا (نذيرة) .



خيل إليها أن الأميرة قد تجمعت ، أو استحالت إلى تمثال
الوردى ، عندما لم تستجب قط لندائها ..

شهقت الوصيصة ، وهي تقول :

- كل شيء !!

ثم استدركت بسرعة وقلبي :

- ولكن الأمور لا تؤخذ بظواهرها يا مولاتي .

قالت الأميرة ، وكأنها لم تسمعها :

- رأيت كل شيء .. ويا ليتني ما رأيت .. لقد استيقظت

مبكرة ، وصليت صلاة الفجر ، ثم فتحت النافذة ، وجلست

أراقب الشروق كعادتي ، عندما رأيته يدخل إلى ساحة

القصر ..

والتفتت في بظء إلى الوصيصة ، متابعة في صوت باك

بالس :

- رأيت (فارس) يا (نذيرة) .. رأيته وخفى قلبي

لمراه ، وكدت أهتف باسمه ، وأهرع إليه ، متجاهلة كل

التقاليد والأعراف ، والقواعد التي لفتني إياها أبي ، من

شدة شوقي إليه ولهفتي عليه ، ولكن ..

انهمرت الدموع أكثر وأكثر ، وهي تستطرد :

- ولكنني رأيته معها

خلق قلب الوصيصة مرة أخرى في لوعة ، والأميرة

تعود فتتطلع إلى الساحة الحالية ، وكأنها تستعيد معها

نكري المشهد ، الذي أدمى قلبها :

- لم أستطع تبين ملامحها جيدًا ، مع ضوء الشروق

الخافت ، ولكن كن من الواضح أنها شقراء وجميلة ، وأنه

بوليها اهتمامًا عظيمًا .

هتفت الوصيصة :

- أنا رأيته يا مولاتي .

التفت إليها الأميرة في سرعة ، وهي تقول :

- رأيته ؟

ثم تعلقت بها ، مستطردة في لهفة تمتزج بشيء من

الرجاء والضراعة :

- صفها لي يا (نذيرة) .. أخبريني واصدقيني

القول .. هل يحبها ؟ .. لماذا أتى بها إلى هنا ؟ .. لماذا

يا (نذيرة) ؟

أجابته الوصيصة في سرعة .

- إنها (غالا) . وصيفة الملكة القشتالية

(إيزابيلا) .

انتفض جسد الأميرة في عنف ، وهي تهتف :

- (غالا) ؟ .. تلك اللعينة التي أذاقتني عذاب الدنيا

كله ، عندما كنت أسيرة في (قرطبة) ؟ ! (*)

ثم اتسعت عيناها ، وهي تستطرد في توتر :

- ولكن ما صلة (فارس) بامرأة مثل (غالا) ؟ ..

لماذا أتى بها إلى هنا ؟ .. ولماذا يحيطها باهتمامه ؟

أمسكت الوصيصة كتفيها ، وهي تقول :

(*) راجع قصة الأميرة الأسيرة (المعامرة رقم ٢)

- هذا ما أتيت لأهلك إياه يا مولاتي .. لقد علمت أن
(غالا) هربت من (قرطبة) ، وحاولت أن تحتسب
بمعسكر (فارس) ، ولكنها تسببت في إحراق المعسكر ،
واحتطاف الشيخ ، و (فارس) أحضرها إلى هنا ، ليمنح
مولاي الأمير فرصة استنطاقها واستجوابها ، لمعرفة
ما لديها ، في حين انطلق (فارس) لاستعادة الشيخ
ومحاولة إنقاذه من مختطفيه .
هتفت (جميلة) في لهفة :
- حقاً ؟!

ثم لم تلبث أن عقدت حاجبها ، وهي تقول :
- ولكن لماذا لجأت إلى (فارس) بالذات ؟ أي سر
تخفيه ؟

لم تجب الوصيصة سؤالها ، فبقي معلقاً في سماء
الحررة ، وفي عقل (جميلة) ، الذي راح يعمل بأقصى
قوته ، بحثاً عن جواب شاف ..
أي سر تخفيه (غالا) ؟! ..
أي سر ؟!

★ ★ ★

انطلق حوادا (فارس) و (مهاب) ينهبان الأرض
نهباً ، مع مشرق الشمس ، وبدا (فارس) شديد الانفعال ،
وهو يحث جواده على الإسراع ، هاتفاً :

- هيا يا (رفيق) .. هيا .. لا تسمح لهم بالابتعاد
كثيراً .

صاح به (مهاب) :

- رويدك يا فتى .. المسافة من هنا إلى (شنتلي)
طويلة ، ولو بذلت الجياد قصارى جهدها منذ البداية ،
ستتأخر قبل أن تبلغ منتصف الطريق .

قال (فارس) في توتر :

- ولكن هؤلاء الأوغاد يسبقوننا بساعتين على الأقل ،
ولو لم نلحق بهم قبل أن يبلغوا (شنتلي) ، سيمسبقوننا
إلى عبور الحدود ، وتصبح مهمتنا أكثر صعوبة في
(قرطبة) .

هتف (مهاب) لاهثاً :

- حتى جيادهم ستحتاج إلى الراحة .. اطمئن .
مضت لحظات من الصمت ، والجياد تواصل طريقها ،
ثم قال (مهاب) :

- هل تصنق تلك القشتالية ؟

أجاب (فارس) :

- قصتها تبدو معقولة يا صديقي ، فهي تقول : إن
القشتاليين قد قرروا بدء هجوم جديد ، يحاولون به
الاستيلاء على ما تبقى لنا من (الأندلس) ، وأنهم

قد اختاروا بلدة (شنتفى) لبدء الهجوم ، نظرا لقربها من حدودهم ، ولوجود حاكم موال لهم هناك ، وهو (جهلان ابن الراضى) ، الذى سيتيح لهم عبور الحدود ، وتنظيم فرقهم ، وسيمدهم بالأموال والذخائر .

مط (مهاب) شفتيه ، وقال :

- أشعر بالألم والمرارة ، كلما بلغنى أمر عربى خانن .
تنهد (فارس) ، وقال :

- لولا أمثاله ما فقدنا ثلاثة أرباع (الأندلس) حتى الآن .. ثم إن (جهلان) ليس عربيا خالصا ، فأمه يهودية من أصل فرنسى .

عاد (مهاب) بمط شفتيه ، ثم قال :

- المهم . هل تصنى قصة تلك القشتالية ؟

صمت (فارس) لحظات ، ثم قال :

- ليس أمامنا خيار آخر ، فقصتها تبدو معقولة ، وهى تشير إلى أن عملاء (قرطبة) ، الذين اختطفوا شيخنا ، سيجاولون نقله إلى (شنتفى) ، حتى تصل فرقهم ويصل قانتهم .. وهذا يعنى أن مهمتنا مزدوجة ، فلن يكون علينا استعادة شيخنا فحسب ، ولكن منع الهجوم القشتالى أيضا .

عقد (مهاب) حاجبيه لحظات ، قبل أن يقول :

- أخشى ما أخشاه أن ..

ثم بتر عبارته ، وهتف فجأة :
- انتظر .

جذب (فارس) عنان جواده بحركة تلقائية ، فأطلق (رفيق) صهبلًا طويلًا ، وهو يضرب قائمته فى الأرض بشدة ، حتى توقف تمامًا ، فوثب (فارس) عن متنه ، وسأل (مهاب) ، الذى سبقه إلى الهبوط عن صهوة جواده :

- ماذا وجدت ؟

انحنى (مهاب) بفحص الأرض فى اهتمام ، ثم قال :
- أعتقد أننا نصير على الطريق الصحيح ، فها هى ذى آثار أربعة جياد ، تنطلق فى اتجاه الشمال الغربى ، وحوافر أحد الجياد أكثر عمقا من الحوافر الأخرى ، مما يوحي بأنه كان يحمل ثقلًا زائدًا .. وأعتقد أن هذا الثقل الزائد هو الشيخ ، فأحدثهم بحمله على جواده .

بدا الارتياح على وجه (فارس) ، وهو يقول :
- حمدًا لله ،

ولكن الارتياح لم يلبث أن تلاشى ، عندما رأى انعقاد حاجبيه (مهاب) ، وهو يعيد فحص الآثار ، فسأله :

- هل من مزيد ؟

تنهد (مهاب) ، وهز رأسه لحظة ، ثم قال :

- لقد توقفوا طويلاً هنا . ولست أدري لماذا ؟

أجابه (فارس) في حذر :

- ربما للحصول على قسط من الراحة .

أشار (مهاب) إلى الأرض المقفرة من حوله ، وهو

يقول :

- هنا ؟!.. حيث لا ماء ولا طعام ولا مكان للراحة !

لا .. لا أعتقد هذا . لقد توقفوا لسبب آخر .

عقد (فارس) حاجبيه ، وهو يفهم .

- مثل ماذا ؟

هز (مهاب) رأسه ، وغصم :

- لست أدري .

قالها وهو يدير عينيه فيما حوله في اهتمام ، ثم هتف

فجأة :

- انظر يا (فارس) .. هناك .

أدار (فارس) رأسه في سرعة ، إلى حيث يشير

(مهاب) ، ووقع بصره على حرملة الشيخ ، المعلقة على

غصن شجرة قريبة ، ورأى (مهاب) يندفع نحوها ، وهو

يواصل هتافه :

- إنها حرملة الشيخ .. أنا أعرفها من بين ألف حرملة

أخرى .

وانعقد حاجبا (فارس) في شدة لحظة ، ثم هتف بغتة :

- ربّاه !

وصاح في (مهاب) :

- (مهاب) .. انتظر يا صديق .. إنه ..

وقبل أن يتم عبارته ، شعر (مهاب) بالأرض تميد

تحت قدميه ، ووجد نفسه بهوى في حفرة عميقة ..

ولم يكن الخطر كامناً في عمقها فحسب ، ولكن في تلك

الحراب الثلاث ، التي انفرست قواعدها في العمق ،

واتجهت أطرافها المسنونة إلى أعلى ..

إلى حيث يهبط جمد (مهاب) ..

★ ★ ★

استيقظ الملك (فرناندو) مبكراً ، على غير العادة ،

وجلس في شرفة قصره ، يراقب السماء في صمت ، دون

أن يمس كأسه ، مما أثار اهتمام وقلق الملكة (إيزابيلا) ،

فاتجهت بدورها إلى الشرفة ، ووقفت طويلاً خلفه ، تتطلع

إليه في صمت ، ثم هممت :

- هل تشتهي إليها ؟

جفل الملك لحظة ، على الرغم من انخفاض صوتها ،

الذي اقتحم عليه خلوته ، ثم التفت إليها في بطم ، وتطلع

إليها لحظة في ضيق ، قبل أن يعود للتطلع إلى السماء ،

قنلاً :

- ماذا قلت ؟

كررت في شيء من العصبية :
 - هل تشناق إلى (غالا) ؟
 اهتمم في سخريه ، دون أن يجيب ، فاقتربت منه أكثر ،
 وهي تقول :
 - لا تظنني ساذجة أو غبية .. أنا أعرف ما بينكما
 انني أشم عطرها في حجرتك ، و ..
 فاطعها في لهجة تهكمية .
 - وهل بصح ان تتحدث (إيزابيلا) التقية ، بمثل هذا
 القول ؟
 قالت في حدة :
 - مل نفسك يا ملك (قشتالة) .. هل بصح أن ينحدر
 الملك الورع إلى هذا الدرك ؟
 اهتمم وهو يقول :
 - جمال (غالا) يستحق كل التضحيات .
 قالت غاضبة :
 - بل لناءة نفسك هي التي تبيع لك كل الموبقات .
 انعقد حاجباه في شدة ، ثم قال وهو يضغط كل حرف
 من حروف كلماته :
 - من حسن حظك أنني أنتظر حدثا هاما الآن ، والا
 لقنك درسا قاسيا ، من أجل ما تلفظت به الآن .



ولم يكن الخطر كاملا في عمقها لحسب ، ولكن في تلك الحراب
 الثلاث ..

هتفت في استنكار :

- هل تجرؤ ...

بثرت عبارتها بغتة ، عندما رآته يهتّب من مقعده ،
وتتألق عيناه وهما تتابعان حمامة بيضاء صغيرة ، عبرت
سماء ساحة القصر ، قبل أن تهبط عند برج الحمام ، في
الركن الشرقي من القصر ، وأدركت على الفور أن هذه
الحمامة تحمل أنباء بالغة الخطورة ..

وفي لهفة ، هتف الملك :

- أخيرًا يا مليكتي .

واندفع نحو منضدة قريبة ، والتقط كأسه من فوقها ،
وألقى محتوياته في حبلقه دفعة واحدة ، قبل أن يستطرد
بوجه محتقن :

- لقد نجح هذا الجزء من خطتي .. نجح تمامًا .

سألته في حذر :

- أية خطة ؟

فهلّه ضاحكًا بشدة ، وصبّ لنفسه كأسًا أخرى ، رافعها
عاليًا ، وهو يقول :

- الخطة التي ستفتح لنا الطريق يا مليكتي .

وبرقت عيناه في شدة ، وهو يستطرد :

- الطريق إلى (غرناطة) .

وانطلقت من أعماقه ضحكة أخرى مجلجلة ..

★ ★ ★

انتفض جسد (فارس) كله ، مع تلك الصرخة ، التي
أطلقها (مهاب) ، عندما سقط في الحفرة العميقة ..

صرخة تحمل الدهشة ، والألم في آن واحد ..
وعلى الرغم من أن (فارس) لم ير ما تحويه الحفرة ،
إلا أنه اندفع نحوها بأقصى سرعة ، واتسعت عيناه في
ارتجاع ، وهو يحنق داخلها ..

كان (مهاب) قد سقط داخل الحفرة ، وحاول الالتصاق
بجدارها ، لتفادى الحراب المصوبة إليه ، إلا أن إحدى
الحراب انفرست في ساقه اليسرى ، في حين مرقت ثانية
قميصه ، عند منتصف الصدر تمامًا ، ولوثته بدماء جرح
بسيط أحدثته به ..

وهتف (فارس) في انزعاج :

- (مهاب) .. ماذا أصابك يا رجل ؟

انترع (مهاب) الحربة من ساقه ، وهو يقول في ألم :

- اطمئن يا فتى .. لم يحدث ما لا يمكن علاجه .

وتطلع إلى الحربتين الأخريين ، قبل أن يضيف :

- ولكن ساعدني في الخروج من هنا ، وسندرس أمر

العلاج فيما بعد .

انحنى (فارس) ، يمد له يده ، وهو يقول :

- تشبث بيدي يا صديقي .

٥ - خطوة بخطوة ..

داعب (محمد بن الأحمر) ، أمير (غرناطة)
و (الأندلس الصغرى) لحبته ، وهو يتطلع ملياً إلى
(غالا) ، قبل أن يقول فى هدوء رصين :
- ما تلوأينه معقول للغاية يا بنيتى ، له (شنتلى) هى
بالفعل أقرب النقاط إلى حدود القشتاليين ، ولست أثق قط
بحاكمها (جهلان) ، ولكن هل تعلمين متى يتم الهجوم
المرتقب ؟

أجابته (غالا) على الفور :

- فى الصباح التالى لاكتمال القمر يا مولاي .. لقد
سمعت الملك (فرناندو) يقول : إنه سيهاجم بثلاث فرق
فى البداية .. فرقتان من الشرق والغرب ، والثالثة فى
المقدمة ، ثم يقوم بحركة التفاف ، ويدعم وجوده بفرقتين
أخريين من الشمال .

زوى (ابن الأحمر) ما بين حاجبيه ، وهو يسألها :
- هل تفهمين شيئاً فى التخطيط الحربى يا بنيتى ؟
هزت رأسها نفياً ، وهى تجيب :

- مطلقاً يا مولاي .. إننى أرئد ما سمعته فحسب .
تضاعف انعقاد حاجبيه ، وعاد يداعب لحبته لحظات
أخرى ، ثم قال :

أمسك (مهاب) يد (فارس) ، وهو يقول فى حنى :
- هؤلاء الأوغاد توفلوا ليصنعوا لنا فخاً .

قال (فارس) ، وهو يجنبه بكل قوته :
- سنجعلهم يدفعون الثمن ، عندما نصل إليهم .
دفع (مهاب) قدمه اليمنى فى جدار الحفرة ، لمعاون
(فارس) على رفعه إلى أعلى ، وهو يقول :
- المهم أن ترفعنى بحذر يا فتى ، فلو أفلتت يدي ،
سأسقط فوق الحربتين الأخريين ، وتنسى أمر علاجى إلى
الأبد .

تمتم (فارس) ، وهو يجنبه فى قوة :
- اطمئن .. لن أدعك تسقط براثن الله .
و لكن فجأة ، أطلق (رفيق) صهيقاً عالياً ..
وانتفت (فارس) فى سرعة إليه ..
وارتفع حاجباه فى دهشة وتوتر ..
فعلى بعد ثلاثة أمتار منه ، كان هناك رجلان يندفعان
نحوه ، وكل منهما يرفع سيفه ، وينقض به عليه ..
وكان على (فارس) أن يختار ..
حياته أو حياة (مهاب) ..
وما من بديل ثالث .

★ ★ ★

- حسن يا بنيتي . عودي إلى جناح الحريم ،
وسكر من وفادتك ، وامنحك جل رعايتهم وعنايتهم ،
ولك مطلق الحرية في التجول حيثما تشائين .

انحنى أمامه في خنوع ، ثم سارت بين وصيفتين من
وصيفات القصر إلى جناح الحريم ، ولم تك تخطئ ، حتى
مال الأمير على وزيره ، وقال :

- ما رأيك فيما سمعته منها ؟

أجاب الوزير في اهتمام :

- لو أنها بالفعل تجهل كل شيء عن التخطيط الحربي ،
فروايتها صادقة من دون شك .

هز الأمير كتفيه ، وقال :

- ومن أين لو صيغة مثلها معرفة هذه الأمور ؟

قال الوزير :

- في هذه الحالة يتحتم علينا أن نعد العدة لمواجهة

الجيش القشتالي يا مولاي .

تنهد الأمير وقال :

- مواجهة خمس فرق قشتالية .. آه .. إننا نحتاج إلى
جيش كامل .

أوما الوزير برأسه موافقا ، وقال :

- هذا صحيح يا مولاي .. إننا قد نحتاج إلى ثلاثة أرباع

جيشنا ، ولكن من حسن طالعنا أننا كشفنا هذا الأمر ،
وعلمنا أين تتجه نية القشتاليين للهجوم .

صمت الأمير لحظات مفكرا ، ثم قال :

- نعم .. لقد علمنا .

وطال صمته مرة أخرى ، وهو يداعب لحيته في تفكير
عميق ، قبل أن يقول :

- على أي حال ، ما زال أمامنا وقت لاتخاذ القرار ..

إنهم سيهاجمون بعد خمس ليال ، والجيش يحتاج إلى
يومين فحسب ، لبلوغ (شنتلي) .. ومن يدري .. ربما
وصلتنا أخبار تأكيدية ، قبيل هذا الموعد .. ربما .

وعاد إلى صمته وتفكيره العميق ..

★ ★ ★

كان الموقف معقدا بحق ..

بل شديد التعقيد ..

ف (فارس) يجذب (مهاب) إلى خارج الحفرة ، التي
تبرز في قاعها حربتان ، في تحفز تام لاختراق أول جسد
يهوى إليها ، والرجلان يهاجمانه من الخارج ، وسيفاهما
ينفضان عليه بلا رحمة ..

وكان على (فارس) أن يتحرك ..

وبأقصى سرعة ..

ودون تردد ، اكتفى (فارس) بيده اليسرى ، الممسكة بيد (مهاب) ، وثبت يده اليمنى تستل سيفه ، دون أن ينهض من مكانه .

وهتف أحد القشتاليين ساخراً .

- ستقتلك راكفا أبها العربى .

قالها وهو يلوح بسيفه ، ليهوى به على عبق (فارس) ، فصرخ (مهاب) ، وهو يحاول دفع جسده إلى أعلى :
- أبها الأوغاد .

ولكن (فارس) صرب بسيفه فى قوة ، فأصاب ساق القشتالى ، الذى صرخ فى ألم ، وهو يسقط أرضاً ، وأطلق صياهاً ساخناً ، فانقض زميله على (فارس) بكل غضبه وسخطه ، وهو يصرخ :

- لن تفعلها مرة ثانية أبها العربى

وكان القشتالى على حى فى قوله هذا ..

(فارس) لن يفعلها ..

بل لا يمكنه أن يفعلها ، فالرجل بهاجم من زاوية صعبة ، وعسيرة المسال ، وجسد (مهاب) يتناقل مع مرور الوقت ، والتوضع الذى يتخذه فارس معقد ، و ...

ورفع الرجل سيفه ، وهو يصرخ بكل قوته :

- خذها منى أبها العربى .. خذها واذهب إلى الجحيم ، الذى ..

ولجأة ، أطلق الرجل شهقة قوية ، بتر بها عبارته ، وحفظت عيناه فى شدة ، وارتجفت قبضته ، ثم ترشح ، وسقط سيفه عند قدمى (فارس) ، قبل أن يهوى الرجل إلى جواره جثة هامدة ، انفرس سهم فيها من الظهر ، فى موضع القلب تماماً ..

واتمعت عينا (فارس) لحظة فى دهشة ، ثم رفع عينيه بسرعة إلى رهوة بعيدة ، وهتف فى ارتياح :
- (فهد) ..

كان الزنجى الصموت يعيد قوسه إلى كتفه ، ثم يجذب عنان جواده ، ويعود ليختفى خلف الرهوة ، وكأنما اكتفى بمهمته المباشرة المحدودة ..

أما (فارس) ، فقد استجمع قواه ، وجذب (مهاب) إلى خارج الحفرة فى قوة ، وهو بهتف :
- إنه (فهد) يا (مهاب) .. (فهد) كالمعتاد .

توتر القشتالى المصاب فى شدة ، ورثد فى عصبية :
- اللعنة .. لقد نسينا الزنجى .

ودفع جسده إلى الأمام ، فى محاولة لاستعادة سيفه .

الذي سقط مع سقوطه ، ولكن (فارس) وثب نحوه ،
وضرب السيف بسيفه ، فأطاح به بعيداً ، وهو يقول :
- هيهات يا رجل .. سبق السيف العذل .
ثم وضع نصل السيف على عنق الرجل ، وهو يقول :
- والآن ، أعتقد أنك مستجيب بعض الأسئلة ، التي
سألقها على مصامعك .

قال الرجل في حلق :

- اذهب إلى الجحيم .

جلس (مهاب) بضمد جراحه ، وهو يقول :

- اهتله فوزاً ، ما دام يصر على الصمت .

ولكن (فارس) ، قال في صرامة :

- سأمنحه فرصة واحدة .

وانعقد حاجباه في شدة ، وهو يسأل الرجل :

- أين الشيخ ؟ .. كيف نجده ؟

مط الرجل شفتيه ، وهو يشيح بوجهه في صرامة ،

فانقض عليه (فارس) فجأة ، وانتزعه من مكانه ،

وجذبه في قسوة إلى الحفرة ، وصاح الرجل :

- مهلاً أيها العربي .. إنك تؤذي ساقى المصابة .

ولكن (فارس) أمسكه من قميصه في قوة ، وأمال

جسده نحو الحفرة ، بحيث لا يمنعه من السقوط فيها سوى

قبضة (فارس) الممككة به ، وهو يماله في صرامة :

- أين شيخنا ؟ .. وكيف يمكننا العثور عليه ؟

تصنّب عرق غريز على وجه الرجل ، وقال :

- إنك .. إنك لن تفعل .

رفع (فارس) سيفه ، ورمى به جزءاً من قميص

الرجل ، وهو يقول في برود :

- أتؤمن بهذا حقاً ؟!

صرخ الرجل ، وهو يرمى الحربتين المسنونتين بنظرة

رعب :

- لا .. لا تفعل .

وزمجر (مهاب) ، قائلاً :

- لا تضع الوقت يا فتى .. هباً .. ألقه في الحفرة

ولتواصل طريقنا .

صرخ الرجل :

- لا .. سأخبركما بكل ما تريدانه .. زميلان يحملان

الشيخ إلى (شنتلي) ، حيث سيحتفظان به سجيناً في قهو

قصر حاكمها (جهلان) حتى هتف به (فارس) :

- حتى ماذا ؟

لوح الرجل بذراعيه ، هاتفاً في ارتجاع :

- لا .. لا يمكنني إخباركما .

ونهض (مهاب) واقفاً ، وقد انتهى من تضميد جرح

ساقه ، وقال :

فليكن .. إنك لم تخبرنا بما كنا نجهله .

جذب (فارس) الرجل ، وهو يقول :

- وهذا يكفيني .

لهث الرجل لحظة ، من فرط التوتر والانفعال ، ثم ألقى

نظرة على زميله الصريع ، وغمغم في سخط قائم :

- ولكنه لا يكفيني .

ودفع يد (فارس) بعيداً بفتة ، وهو يستل خنجرًا مخفيًا

في حزامه ، ويصرخ :

- لن يكفيني سوى قتلك أيها العربي .

تراجع (فارس) بحركة سريعة ، وحاول الرجل

الانقضاض عليه ، إلا أن طرف الحفرة ، الذي يستند إليه ،

انهار تحت قدميه بفتة ، فصرخ في ارتباك :

- لا .. النجدة .

اندفع (فارس) نحوه ، محاولاً إنقاذه ، إلا أنه هوى

في الحفرة ، وأطلق صرخة مروعة ، عندما اخترقت

الحربتان ظهره ، ونفذتا من بطنه ، وقتلتاه على الفور ..

وفي أسي ، غمغم (فارس) :

- لقد قتل نفسه .

صعد (مهاب) إلى صهوة جواده ، وهو يقول في صرامة :

- كان يستحق هذا .

وثب (فارس) بدوره على متن جواده ، دون أن يطلق

بحرف واحد ، وعاود الاثنان انطلاقهما نحو الهدف ..

نحو قصر حاكم (شنتلي) ..

★ ★ ★

أريد أن أفهم ما يحدث ..

نظقت الملكة (إيزابيلا) هذه العبارة في صرامة

شديدة ، تحمل رائحة الإصرار والعناد ، ولكن الملك

(فرناندو) صبّ لنفسه كأساً من الخمر في هدوء ، وحمله

إلى الشرفة ، وهو يطالع الرسالة التي وصلتته منذ قليل ،

وقد تجاهل عبارتها تمامًا ، فأتجهت إلى الشرفة بدورها ،

وقالت في حدة :

- هل أصيب الملك بالصمم ، في الآونة الأخيرة ؟

أجابها ساخرًا :

- نعم .. فيما يختص بالعبارات السخيفة .

اتعقد حاجبها في غضب ، وهي تقول :

- لقد تجاوزت حدودك .

قال متهمًا :

- حقًا ؟

صاحت به في صرامة :

- نعم أيها الملك لقد تجاوزت حدودك حد ، ونسيت
أننى ملكة (قنينة) و (لون) ، وأن نصف الجيش ،
الذى تعده لمساعدة العرب ، واستعادة مجد (الاسلام)
المفلود ، يدور لى شخصيا بالولاء ، وبإشارة واحدة منى ،
يمكنه أن يتراجع وينسحب ، وتترك وحدت نصف جيش ،
لتواجه جيوش العرب كلها .

انعدت حاجباه فى شدة ، وهو يوليها ظهرا ، ومضت
لحظات من الصمت ، قبل أن يرسم على شفتيه ابتسامة
مصطنعة ، وبلغت إليها ، قائلاً :

- يا عزيزتى (بزابودا) شرف يمكن أن تتوتر
الأمور بهذا إلى هذا الحد ؟
قالت فى غضب

- يمكنك أن تفسر نفسك

استدار إليها بحميدة دائمة ، وهو يرسم تلك الابتسامة على
وجهه ، وقال :

- بل انت تضخمى الأمور دون داع يا عزيزتى انه
أمر بسيط ، وسأخبرك به حتما .

وتناولها الرسالة مستطرذا :

- ها هى دى الرسالة رحبت بذيروسى انهم نجحوا



ويمكن ذلك ، وهو ، حسب نفسه كمال من حمر الى حمر ، وحمله
ن بشره ، وهو يطاع الرسالة الى وحشته هذا فى

في مهمتهم ، وأنهم في طريقهم مع الوزير القرطبي
السابق إلى (شنتلي) ، كخطوة أولى في خطة معدة ،
وضعت أنا تفاصيلها بنفسى خطوة خطوة .

سألته في اهتمام حذر :

- أية خطة ؟

صب كاسنا أخرى من الخمر ، وناولها إياها ، وهو يقول
مبتسما :

- الأمر ليس بهذه البساطة .. إننا نحتاج إلى ساعة على
الأقل ، لأشرح لك خطتى بكل تفاصيلها .

أزاحت يده جانباً ، وهي تقول في صرامة :

- أنت تعرف أننى لا أشرب الخمر .

ضحك ، قائلاً :

- آه .. لقد نسينا .. أنت (إيزابيلا) القديسة الورعة .

لم ترق لها سكريته ، فعانت تعقد حاجبها ، إلا أنه

استدرك في سرعة :

- ولكن هذا أفضل بكثير ، فالخمر تذهب العقل وتزعزع

الفكر .. والآن .. هل ترغبين في معرفة خطتى .

قالت في لهفة :

- بالتأكيد .

ارتشف رشفة من كأسه ، وهو يقول :

- دون الدخول في التفاصيل ، يكفى أن تعلمى أن خطتى
ستحمل للعرب مفاجأة .

وبرقت عيناه ، وهو يستطرد :

- أكبر مفاجأة في حياتهم .

وأطلق ضحكة مججلة أخرى :



٦ - حياة القصور ..

« وصلوا يا سيدي .. وصلوا »

هتف خادم القصر بهذه العبارة ، وهو يعدو عبر البهو ، نحو سيده (جهلان) ، الذي انتفض فوق مقعده ، وهو يقول :

« حطاً ..!؟ استعدوا لاستقبالهم إذن .

وجرى بدوره إلى الشرفة ، التي تطل على مساحة القصر ، ورأى جوائين يصران البوابة الكبرى إليها ، وعلى متن أحدهما فارس ممشوق القوام ، صارم الملامح ، في حين يستقر رجلان على صهوة الجواد الثاني ، وأحدهما مفيد المعصمين ، مكتم الفم ، تنهد في ارتياح ، قائلاً :

« أخيراً .

وأمرع يستقبل الفارسين . وهما ينزلان الشيخ ، واستقبل صاحب الملامح الصارمة ، وهو بهتف في حرارة :

« مرحباً أيها الفارس (خوان) .. أرى أن مهمتكم قد كُتلت بالنجاح .

رمقه (خوان) بنظرة ازراء ، وهو يقول :

« وهل كنت تشك في ذلك ؟

هتف (جهلان) :

« مطلقاً .. مطلقاً يا سيدي (خوان) .. ولكن .. هل .. هل ..

وخلفض صوته ، مستطرداً في قلبي :

« هل رأيكما أحد ، وألتما تأتيا إلى هنا ؟

أجاباه (خوان) في حزم :

« على قلنا يا رجل .. إننا لرتدي ثياباً عربية ، وكل

شئ يميز على ما يراد .

قال في توتر :

« حسن .. حسن .. انظرا الوزير بسرعة إلى القبو ..

هنا .

ولم تمض دقائق ، حتى كانوا يقفون الشيخ داخل القبو ، ويرفعون عنه كمامته ، فتطلع في هدوء إلى

(جهلان) ، وقال :

« إذن فما زلت تذكرني يا (جهلان) .

ابتسم (جهلان) في تشف ، وهو يقول :

« وكيف أنساك أيها الوزير ؟ .. ألسنت من حرمني الفوز

بإمارة (بسطة) ذات يوم ؟

قال الشيخ في رصانة :

« أظن هذا الموقف يؤكد أنني كنت على حق .

انعقد حاجبا (جهلان) ، وهو يقول :
- الخرس أيها الوزير .. لسنا الآن في قصر أميرك
المفرور في (قرطبة) .. إنك هنا في قبضتي ، وتحت
رحمتي .

لم يبد الخوف على وجه الشيخ ، وهو يقول :
- كلنا تحت رحمة الخالق (عز وجل) .
اندفع (جهلان) نحوه ، وجنبه من قبضته ، قائلاً :
- بل أنت هنا في قبضتي أيها الشيخ ، وأنا وحدى أمانك
حياتك أو موتك .

قال الشيخ في هدوء :
- ربما لا يستمر هذا الوضع إلى الأبد .
أطلق (جهلان) ضحكة عصبية ، وهو يقول :
- لو أنك تنتظر محاولة إنقاذ من رفاقك فأنت واهم ..
لو حضر جيش (ابن الأحمر) كله ، لما أمكنه إنقاذك ..
هل تعرف لماذا ؟

ثم تراجع ، ولوح بذراعيه ، هاتفاً :
- إنك داخل قهو مغلق ، ليس له سوى مدخل واحد ،
يحرسه عشرة من أقوى وأشد رجالي ، وهذه الفتحات التي
تراها في الجدار ، تتصل مباشرة بتلك البركة الكبيرة ، في
ساحة القصر ، ويكفي جذب نراع معدنية صغيرة ، لتفتح

أبواب سرية في قاع البركة ، وتتدفق مياه البركة كلها إلى
القبو ، فتغمره كله ، وتغرق داخله كالطائر الحبوس .
أدرك الشيخ أن ما وصفه (جهلان) يعني أنه في
موقف حرج بالفعل ، إلا أنه أخفى قلقه في أعماقه ،
وحافظ على هدوء ملامحه وصوته ، وهو يقول :

- الله (سبحانه وتعالى) أقوى من الجميع يا (جهلان) .
بدا لحظة أن (جهلان) سينفجر في وجه الشيخ ، لولا
أن قال (خوان) في صرامة :

- كفى .. لا وقت لهذه المهاترات السخيفة .
انعقد حاجبا (جهلان) لحظة ، قبل أن يقول في هنى :
- أنت على حق .. لا وقت للمهاترات .
واندفع بفار القهو في خطوات واسعة سريعة ، وهو
يرفع عقيرته ، صاخفاً :

- لو حاول أحدهم إنقاذ هذا الشيخ ، فلا تترددوا في
نجهه .
ابتسم (خوان) في سخرية ، وقال وهو يتطلع إلى
الشيخ :

- لو أن الأمر بيدى ، لنبحثك الآن وبلا تردد أيها
الوزير السابق ، ولكن ملكنا (فرناندو) يصر على رؤيتك
بنفسه ، عندما تسيطر جيوشنا على ما تبقى من أرضنا
الانكسرية .

قال الشيخ :

- وهل ملككم صبور إلى هذا الحد ؟

أطلق (خوان) ضحكة ساخرة ، وقال :

- بل أنت الجاهل أيها الوزير .

ثم مال نحوه ، حتى امتزجت أنفاسهما ، وهو يتطلع إلى

عينية ، مستطرذا في شماعة :

- من الواضح أنك لا تعلم أن جيوشنا ستحتاج ما تبقى

من (الأندلس) ، بعد أربع ليال فحسب .

ثم تراجع مقلعها في جذل ظافر ، في حين عقد الشيخ

حاجبيه في شدة ، وقد بدأ قلبه يشعر بالخوف الحقيقي لأول

مرة ..

الخوف من الضياع ..

ضياع (الأندلس) ..

★ ★ ★

بذل (مهاب) قصارى جهده ، واستنفر كل إرادته ،

ليحتمل الام ساقه اليسرى ، وجواده ينهب به الطريق ، إلى

جوار جواد (فارس) ، إلا أن جسده لم يستطع الاحتمال

إلى ما لا نهاية ، فلم يلبث أن أطلق صرخة ألم ، وهو

يهتف به (فارس) :

- رويدك يا فتى .. ساقى لم تعد تحتمل .

كان (فارس) يتمنى مواصلة الطريق حتى النهاية .

إلا أنه لم يملك سوى التوقف ، إيماناً منه بأن القافلة

لا تمير إلا بقدر احتمال أضعفها ، فتوقف ، والتفت إلى

(مهاب) ، ليمأله عن حال ساقه ، ولكنه لم يكذ بتطلع

إليها ، حتى هتف في النزاع :

- ربنا !

كانت الضمادات التي تلف ساق (مهاب) قد اتسخت ،

وتلوّثت ، وانتشرت فيها بقعة ضخمة من الدماء ، جعلت

(فارس) يستطرد :

- ولكنك تتزف يا صديقى .

هز (مهاب) كتفيه ، وقال في ألم :

- حلاً ؟!

وثب (فارس) عن جواده ، وأسرع إليه بمعاونه على

الهبوط ، ثم أرقده أرضاً ، و (مهاب) يقول في تهالك :

- اننا نضيع وقتاً طويلاً .. سنتوقف لحظات ، ثم نعاود

السير .

لم يعلق (فارس) على عبارته ، وإنما رفع الضمادات

بسرعة عن ساقه ، وسمعه يتأوه ، وهو ينزع عنه الجزء

الأخير منها ، ثم انعقد حاجباه في شدة ، وهو يتطلع إلى

الجرح .

كانت الدماء تواصل تزيغها ، وتفرق ساقه كلها ،

وبعضها يتجلط حول الجرح وأسفله ، في حين راح عرق
غزير يتصبب على وجه (مهاب) ، وهو يقول :

- الشيخ .. إننا لن نتخلى عن الشيخ .. أليس كذلك ؟
تحسن (فارس) جبهة (مهاب) ، ثم هتف في هلع :
- يا للهول !.. إنه محموم .

وراح يتلفت حوله . هاتفا في أسى :

- ماذا أفعل الآن ؟.. كيف يمكنني إنقاذه ؟

بدا (مهاب) متهاكبا على نحو عجيب ، وهو يقول :
- ارحل يا فتى .. اتركني وارحل .. أنفذ شيخنا .

ثم تراخى جفناه ، ونضاعف العرق المتصبب على
جبينه ، وأدرك (فارس) الحقيقة المؤلمة ..

إن (مهاب) يلفظ أنفاسه ..

أنفاسه الأخيرة ..

★ . ★ . ★

اعتدلت الأميرة (جميلة) ، تتطلع في اهتمام إلى
وصيلتها (نذيرة) ، التي دلفت إلى جناحها في خلة ،
وأشارت إلى باقي الوصيفات بالانصراف ، حتى أصبحت
وحدها مع الأميرة ، فسألتها هذه الأخيرة في لهفة :

- ماذا لديك يا (نذيرة) ؟

مالت (نذيرة) على أنن الأميرة ، وهمست :

- لقد خرجت إلى السوق .
اعتدلت (جميلة) ، وسألتها :

- وماذا فعلت هناك ؟

تتهتت (نذيرة) ، وقالت :

- لا شيء .. لقد تجولت في السوق ، وتحدثت إلى
بعض البائعين ، ثم عادت إلى القصر ، وقبعت في حجرتها
منذ ذلك الحين .

انعقد حاجبا الأميرة ، وهدت على وجهها علامات
التفكير لحظات ، قبل أن تهز رأسها ، قائلة في توتر :
- لا يمكنني أن أثق بهذه المرأة .. ولست أدرى كيف
سمح لها والدي بالتجوال بمنتهى الحرية ، على هذا النحو .
قالت (نذيرة) :

- مولاي الأمير له نظرنه الحكمة للأمور يا مولاتي .
ظلت الأميرة عاقدة حاجبها لحظات ، ثم غمضت :

- ليتني أدرك ما يدور في أعماقه .
وتتهتت في قوة ، ثم مالت تتطلع إلى ساحة القصر ،
من نافذة جناحها ، وهي تستطرد :

- إنه لم يمنح نكته للقسائين على هذا النحو .
قالت (نذيرة) :

- ولكنها هاربة من قومها كما يقولون ، ويبدو أنها
نقلت بعض أسرارهم إلى مولاي الأمير .

هتكت (جميلة) :

- هي خائنة لقومها إذن ، ومن الخطأ أن نثق بخائنة ،
حتى ولو كان ما فعلته لصالحنا ، فالتى تخون قومها ،
لا تتورع قط عن خيانة أى كائن كان .

وصمنت لحظات ، قبل أن تستطرد فى حزم :

- واصلى مراقبتها يا (نذيرة) .. اسمى لمعرفة كل
خطوة تخطوها ، وكل قول تنفوه به ، فهذه الأفعى تخفى
حتمًا سرًا خطرًا ، ومهمتنا هي معرفته ، وفضح أمرها
أمام الجميع .

ثم رفعت رأسها فى اعتداد ، مضيلة :

- وهذا ما سأحيا من أجله .

تطلعت إليها (نذيرة) ، وهى تنطق عبارتها الأخيرة ،
وخفى قلبها بين ضلوعها ..

لقد نطقها بحزم وكبرياء أميرة ..

أميرة عربية ..

★ ★ ★

خفى قلب (فارس) فى قوة ، وهو بهز (مهاب) فى

رفق ، هاتفا :

- (مهاب) .. استيقظ يا صديقى .. استعد وعيك ..

لقد بلغنا الهدف تقريبًا .. إننا على مسيرة نصف الساعة

من (شنتلى) .. قاوم يا صديقى .

فتح (مهاب) عينيه فى صعوبة ، وحذى فى وجه
(فارس) لحظة ، ثم قال فى حدة :

- ألم تذهب بعد ؟ قلت لك : اتركنى .

أجابه (فارس) فى حزم ، وهو يعاونه على النهوض .

- محال يا صديقى .. محال .. لو أنك فى موضعى

لما تركتني قط .. محال .

ساعده (فارس) على الوقوف على قدميه ، ولكنه

ترنح ، وهو يقول :

- ولكن الشيخ ..

ثم نهأى ساقطًا ، لولا أن تشبث به (فارس) ، وهو

يقول فى توتر :

- رباه .. إنه مريض للغاية .

وفى حزم ، حمله (فارس) ، وأرقله على ظهر

جواده ، ثم وثب إلى متن (رفيق) ، وأمسك لجام جواد

(مهاب) ، وهو يقول :

- هيا يا (رفيق) .. دعنا ننفذ معلمي .

وانطلق ينهب الأرض بجواده ، ويهتف فى أعماقه .

- أنقذه يا الهى ! .. عاونه ..

كان يشعر بالقلق ، مع ارتجاج جسد (مهاب) فوق

جواده ، (لأنه لم يتوقف عن العدو ، حتى لاحظ له أبواب

من (شنتلى) .. قاوم يا صديقى .

(شنتلى) ، وعبرها فى سرعة ، وهو يسال أحد رجال
الحراسة :

- صديقى محموم .. أين يمكننى (سعافه ؟
تطلع إلية الحارس فى شك ، وأدهشه ثوبه الأبيض ،
وحرملته الخضراء ، وخوذته الفضية ، ولكنه حاب فى
حفر :

- هياك .. فى نهاية السوق ، ستجد منزل الحكيم
(همام) .

هتف (فارس) ، وهو يعدو بالجوادين
- أشكرك يا رجل .

لم يستغرق عثوره على الحكيم (همام) أكثر من ربع
الساعة ، ولقد استقبله ذلك الشيخ الوفور فى اهدم .
وتطلع إلى ثيابه الملففة للظفر ، والتي جعلته يبدو شبه
بأمراء (الأندلس) ، ثم سأله :
- ماذا لديك يا ولدى ؟

حمل (فارس) جسد (مهيب) ، وهو يقول
- صديقى مصاب بجرح عميق ، اورثه حمى أفقدته
الوعى .

هتف به الحكيم :

- احمله إلى الداخل .. هيا .



ولى حزم ، حمله (فارس) ، وأرقده على ظهر جواده ..

وراح الحكيم بفحصه في اهتمام بالغ ، ثم قال :
 - لقد اتسخ الجرح ، ويبدو أن الشيء الذي سببه كان
 مسموما ، ولكننا سنعالج كل هذا بذن الله
 ونم تمض لحظات ، حتى كان هناك خمسة من شباب
 البلدة يلتفون حول (مهاب) ، فأحدهم يفسل جراحه بماء
 دافئ ، والثاني يجلفها ويضع عليها بعض حبوب البن
 المسحوق ، والثالث يعاون الحكيم على فحصها ، والرابع
 بعد مزيجا من الثوم والعسل ، والخامس يسحق بعض
 الاعشاب الجافة ، ويمزجها ببعضها ، و (فارس) يراقب
 كل هذا في قلق ، قبل أن يسأل .

- هل سيشفى ؟

أجابه الحكيم في هدوء :

- بإذن الله يا ولدي .. بإذن الله .

راقبهم (فارس) وهم يدهنون الجراح بمزيج الثوم
 والعسل ، ويضيفون إليها بعض مسحوق الاعشاب ، ثم
 يسقون (مهاب) مشروبا صنعوه من غلى جزء آخر من
 المسحوق ، وبعدها ألبسوه ثيابا جافة ، وراحوا يصنعون
 كمادات مبللة على جبهته وذراعيه ، وتنهّد الحكيم ، وهو
 يربت على كتف (فارس) ، قائلاً :

- اطمئن يا (فارس) .. سيشفى بإذن الله ، ولكنه
 يحتاج إلى نوم عميق حتى صباح الغد .

نظّم إليه (فارس) في دهشة وهو يقول

- هل تعرفنى يا سيدى ؟

انسم الحكيم (همد) . وشل

- الانباء تتماثل في سرعه يوسى وبس من الممكن
 أن يحظى المرء ثوب المميرة . انى يتشوق وتصفه
 كلاساطير . ولا بطولات بقده النور دمه الحميم
 لحدوا فيها نحة نضر . بسرعه من اسب شعورهم
 اسب بهزيمة . بعد ان سرع من الشمس . راحة ارجاع
 (الاندس) . ويظفون من سرعه سرعه يوسى

وانصت انتسامته . وهو يستطرد :

- ثم نرى كتب الطبيب الذى لا يمر (شرطه) . رحمه
 الله . وانك سحرة طوى الانس منه فى ملامحه وشبهه

هتف (فارس) :

- اذن فانت تعرف والدى .

كان مرغب فى نداء حشر ب اسمه كمر الحكيم . فولا
 ان افسح السب فى همد سحرة ونور غنى حسنه سب
 بهتف :

- انباء هامة فى قصر الخائن .. لقد ..

وبتر عبارته معه عسى ومع سرده غنى (فارس)
 وارتبك فى شدة ومن الحكيم فى همد

- ادخل وأغلق الباب خلفك يا ولدي ، وأكمل ما لديك
في أمان .

أطاعه الشاب ، واقترب منهما ، قائلاً في انفعال :
- لقد أحضرنا شيخاً وفوراً إلى قصر الخائن ، وسجنوه
في القبو ، وأقاموا حوله حراسة مكثفة .
هتف (فارس) :

- شيخنا هل تعرف أين هو بالضبط ؟
عقد الحكيم (همام) حاجبيه ، وهو يقول :
- شيخكم ؟ هل يقصد ذلك الوزير ، الذي ... ؟
لم يتم عبارته . ولكنه التفت إلى الشاب ، وسأله :
- هل رأيته بنفسك ؟

أجاب الشاب :
- نعم لقد أحصره رجلان غريبان في الصباح ،
ويقال إنهما قشتاليين وحملاه مع (جهلان) الخائن إلى
القبو ، ثم غادره الثلاثة ، وتركوا عشرة رجال لحراسة
مدخل القبو الوحيد .

هتف (فارس) في حزم :
- يا للأوغاد . لا بد من إنقاذه على الفور
قال الحكيم في توتر :
- لن يمكنك مواجعة عشرة من الفرسان وحدك يا بني .

وانبرى الشاب ، قائلاً في سرعة :
- وليت الأمر يقتصر على الفرسان العشرة .. ولكن
الخائن (جهلان) أوصل القبو عبر عدة قنوات ، ببركة
ضخمة من المياه ، في ساحة قصره ، ولو حدث هجوم
لإنقاذ الشيخ ، يكفي أن يجذب أحد الفرسان العشرة ذراعا
معينة صغيرة ، فتغمر المياه القبو ، وتغرق الشيخ على
الفور .

انعقد حاجبا (فارس) في شدة ، في حين تابع الشاب
في أسى :
- وهذا يعني أن إنقاذ الشيخ مستحيل .. مستحيل
تماما .
وكانت ضربة قاسية .



٧ - المستحيل ..

رفع (خوان) ، الفارس القشتالي كأسه عاليا ، في وجه (جهلان) ، وهو يقول في حماس جهورى -
نخب (قشتالة) .

ارتحف (جهلان) ، وتلف حول له في ذعر ، وهو يفهم :
- رويدك يا سيد (خوان) إنك تقف الآن في قلب (الاندلس) .

جرع (خوان) كسه دفعة واحدة ، ثم ابتسم في سخرية ، وهو يقول :

- اطمئن يا رجل لن يستمر هذا طويلا

قال (جهلان) بصوت متوتر :

- فليحضر أصواتنا إذن ، حتى ذلك الحين

تبادل (خوان) نظرة ساخرة مع زميله ، ثم قال :

- هل نعتقد انهم سيحاولون انقاذ ذلك الوزير ؟

أجابه (جهلان) بسرعة :

- بالتأكيد .

ثم برقت عيناه ، وهو يستطرد :

- لقد أبلغنى حواسمى من الفارس الأبيض قد وصل إلى

(شنتفى) بالفعل . وكان يحمل زميله المصاب ، وهما

الآن في دار الحكيم (همام) .

قال (خوان) في صرامة :

- وماذا تنتظر إذن " اقتحم دار هذا الحكيم ، واقتلها

على الفور .

قال (جهلان) :

- ليس هذا بالأمر اليسير يا سيد (خوان) صحيح

أننى الحاكم هنا ، ولكن الحكيم (همام) له شعبية جارفة .

وعدد لا بأس به من الاتباع ، وافحام داره بالقوة سيثير

ثائرة الغوم ، ويدفعهم إلى ارتكب حماقات ، نحن فى عنى

عنها هذه الايام .

قال (خوان) فى حدة :

- شدد الحراسة على مدخل وأسوار القصر إذن

ابتسم (جهلان) فى مكر ، وهو يقول

- دع هذا الأمر لى .

ثم استطرد فى سرعة ، وكأنه يرغب فى تعبير دقة

الحديث :

- ولقد وعدتموسى بوال عرش (الاندلس الصغرى)

بعد دخول جيوشكم إليها ، وانتم قوم شرفاء ، توفون

بعهودكم دائما ليس كذلك يا سيد (خوان)

وضع القشتالي الثانى (كارلوس) يده على فمه ،

ليخفى ضحكة كادت تنفجر من حلقه ، فى حين ارتسمت

على شفتي (خوان) ابتسامة واسعة ، تحمل شيئاً يسيراً
من الخبث والسخرية . وهو يقول .
- بالتأكيد يا حاكم (شنتفى) .. ستال منا حتفا
ما تستحقه .

وضاقت عيناه . وهو يستنرد ساخرًا .
- ما تستحقه بالضبط .

ثم رفع كأسه الجديد ، وهتف :
- والان .. نخب (قشتالة) .

وفي هذه المرة . ردد (جهلان) معه القسم .
ودون هنر ..

★ ★ ★

مالى الشمس الى المغرب . وراحت تغوص تدريجياً فى
بطء . خلف أبراج قصر حاكم (شنتفى) ، و (فارس)
يراقبها فى شروء . من نافذة دار الحكيم (همام) . الذى
جلس يراقبه بدوره فى صمت . حتى مال عليه أحد
مساعديه ، وهمس :
- إنه لم ينس بحرف واحد . ولم يغادر مكانه هذا . منذ
ساعة كاملة .

ابتسم الحكيم . وهو يتمتم :

- كم يذكرنى بوالده (رحمه الله) . فى هذه الوقفة .
التي كان يرتب بها أفكاره . ويدرس قراراته القابعة

ثم نهض من مقعده . مستطرداً فى خلوت :
- كانت تنتهى دائماً بخطة جديدة .

واقترب فى حذر من النافذة . وسأل (فارس) فى
هدوء :

- ألن تتناول شيئاً من الطعام يا ولدى ؟

التفت إليه (فارس) . وحنى فى وجهه لحظة . قبل
أن يقول :

- آه .. أشكرك يا سيدى .. لست أشعر بعد بالجوع .
ثم اعتدل . وسأله فى اهتمام :

- قل لى أيتها الحكيم . هل يمكننى الحصول على
معاونة . لدخول قصر الحاكم ؟

سأله الحكيم :

- ومتى تنوى أن تفعل ؟

أجابته على الفور :

- الليلة . لو أمكننا هذا .

مط الحكيم شفتيه . وانعقد حاجباه طويلاً . وهو يفكر
فى عمل . ثم قال :

- يمكننا تدبير هذا إلى حد ما . ولكنه لن يكون بالأمر
السهل . فالقصة التى رويتها لى تعنى أن الحاكم ينتظر
ويتوقع حضور بعضكم . فى محاولة لتخليص الوزير

واستعدته ، ولا ريب انه قد تحذ أهيته ، وأعد العدة
بملاقئكم ، وسجد الحراسة مشددة

قال مساعد الحكيم في قلق :

- وكما اخبرني الوصور في الوزير مستحيل
اجابه (فارس) في حرم وهو يشير إلى راسه :
- لا يوجد مستحيل ، ما دام هذا في موضعه انهم
مكرون ويحفظون ونحن نمكر ونحطط ، والله
(سبحانه وتعالى) يعلم ما يريد في النهاية

ثم تحرك في الحجرة ، منتظرنا :

- كل ما في الامر ان نواجه قوة غاشمة ، تستعد
للم استعداد لمواجبه مدونة محوم واضحة ، ولكننا
ستصبرهم من حيث لا يوقعون فنربكهم ، ونزلزل
بقوسهم ، ويهزمهم بدار الله (عز وجل)

قال الشاب في اهتمام :

- أديك خطة محدودة ؟

ابتسم (فارس) ، وهو يقول :

- بالتأكيد .

بدت ابتسامته غامضة سكية ، ثم لم يلبث أن سأل في

اهتمام بالغ :

- والان هل يدب رحى أو رجس داخل القصر ، يمكن

ابلاغهم رسالة عاجلة ؟

أجابه الحكيم :

- نعم . وسنرسلها إليهم في التو واللحظة ، قبل
إغلاق أبواب القصر .

بدا الارتياح على وجه (فارس) ، وهو يقول :

- عظيم .. بقي إذن امر واحد .

سأله الشاب :

- وما هو ؟

هرقت عينا (فارس) ، وهو يقول :

- أريد منكم أن ترشدوا أنني أريد (فهذا) في القصر .

تبادل الحكيم والشاب نظرة دهشة ، قبل ان يقول الحكيم :

- ما الذي تعنيه بهذا ؟

ابتسم (فارس) ، وهو يقول :

- إنها مجرد رسالة .

وعاد يتطلع إلى الشفق ، الذي تلون بألوان الغروب ،

وهو يستطرد :

- رسالة تعني الكثير .. والكثير جدًا .

واتصعت ابتسامته أكثر ..

★ ★ ★

سرى الأمر في سرعة ، في سوق المدينة ، بعد غروب

للشمس مباشرة ، وراح الناس يتهايمسون به ، وينقلونه

من واحد إلى آخر ، وإن أثارت العبارة حيرتهم ، وراحوا يتساءلون عما يعنيه وجود فهد في القصر ، ولم يتوصل أي رجل منهم إلى تفسير منطقي لهذا ..
فيما عدا رجل واحد ..

علاق زنجي سموت ، وصل إلى البلدة في الصباح ، على متن جواد حالك السواد ، وذاب وسط زحام السوق ، وهو يحوم حول قصر (جهلان) ، ويدرس مداخله ومخارجه ، وارتطاعات أسواره وأبراجه ..

وفي المساء بلغته العبارة ..

وفهمها على الفور ..

وفي حزم ، جذب عنان جواده ، واتجه إلى قصر الحاكم ، وقد عقد العزم على الدخول إليه ، مهما كان الثمن .

ولكن أحد رجال الحاكم انتبه إلى وجوده ، فمال على أذن زميله ، وهمس في توتر :

- انظر .. أقسم بآبائي وأجدادي أنه ذلك الزنجي ، الذي حفرنا منه .

هتف زميله في انفعال :

- نعم إنه هو بلا شك أبلغ الرجال ، وتعال نهاجمه على الفور .

صغط الأول يده ، وهو يقول :

- كلا .. انتظر .. لو أن ما أبلغونا به صحيح ، فهذا الزنجي ليس هينا .. إنه يحتاج إلى خدعة متقنة ، لإيقاعه في فخ محبوك .

اعتدل زميله ، وهو يقول :

- صدقت ..

لم يسمع (فهد) حديثهما ، وهو يدور حول القصر ، ويبحث عن وسيلة للدخول إليه ، ثم لم يلبث أن عثر على ممر ضيق ، يفصل أحد أسوار القصر عن بيوت الحراس ، فدخل إليه بجواده ، وهو يقيس ارتفاع الأسوار بعينه ، و ...

وفجأة ، أطبق الفخ فكيه ..

أكثر من عشرين رجلا ، أغلقوا الممر من الجانبين ، وكل منهم يحمل سيفه ومجنه ، وعلى رأسهم الرجل الذي كشف وجوده في البداية ، والذي قبله ضاحكا ، وهو يقول :

- انتهى الأمر أيها الزنجي . لقد سقطت في النخ

ولكن (فهد) لم يضع لحظة واحدة ..

لقد أحاط به الرجال من الجانبين ، في محاولة لم غتته ، والإفادة من عامل المفاجأة وتأثيره ، إلا أن (فهد) أطلق



وشهق الفرسان في دهشة أقرب إلى الدهول ، عندما عبرهم الجواد
الأدهم بوثة نادرة واحدة ..

فجأة صرخته المخيفة الرهيبة ، التي تزلزل قلوب أعتى
الرجال ، ثم انقض على الجميع كالإعصار ..
إعصار عاتق رهيب ، تمثل في سيف صارم بثار ، راح
يهوى على الصدور والأعناق بلا رحمة أو تردد ..
وأدرك رجال (جهلان) أنهم أمام وحش كاسر ،
وعملق لا يشق له غبار ..
لقد قاتلوه بسيوفهم ورماحهم ، وجرحوا صدره
وساقه ، ونزاعيه ، وسالت الدماء من جسده كالصول ،
ولكن سيفه لم يتوقف ، وعزيمته لم تهن ، حتى أنه أجبرهم
جميعاً على التراجع أمامه ، فهتف قائدهم .
- السهام .. ارموه بسهامكم .
جذب كل منهم سهمًا من جعبته ، ولكن جواد (فهد)
انقض عليهم في بمالة ، قبل أن يجذب (فهد) عنانه ،
فيطلق سهيلًا عالياً ، ثم يشب فوق رؤوس الجميع ..
وشهق الفرسان في دهشة أقرب إلى الدهول ، عندما
عبرهم الجواد الأدهم بوثة نادرة واحدة ، ثم انطلق براكبه
يشق ظلام الليل ، ويذوب فيه تمامًا ..
.. وهتف أحد الرجال في سخط :
- اللعنة ! لقد هرب .

أجابه قائده في غضب صارم :
- ولكنه لن يبتعد كثيرا .. لقد أصبناه بجراح تكفى لقتل
ثور هانج .. إنها مسألة وقت لحسب ..
وكان هذا هو المخيف في الأمر ..
إنها مسألة وقت ..

★ ★ ★

لم يغمض للحاكم (جهلان) جفن ، طوال تلك الليلة ..
لقد قضى نصف الليل منتظعا عبر نافذته ، إلى مدخل
القبو ، الذي يسجن فيه الشيخ ، حتى أن زوجته قالت في
ضجر :

- هل ستظل هكذا طويلا ؟

غمغم في توتر :
- أخشى أن يحاولوا استعادة الوزير .
قالت في حنق :

- وما الذي سيفعله وقوفك هكذا ؟!.. ألا تثق بهؤلاء
العمالقة العشرة ، الذين تركتهم لحراسة القبو ؟
مط شفتيه ، وهو يقول :
- إنهم أفضل رجالي .

هتفت :

- ماذا إذن ؟

تلهذ في عمق ، ثم هز رأسه ، وغمغم :
- لست أدرى .. إنه القلق فحسب .
عادت إلى فراشها ، وهي تقول في ضجر :
- لو أنني في مكانك لقتلته واسترحت .
قال في مفت :

- كم تمنيت هذا ، ولكن السيد (خوان) يصر على
بقائه على قيد الحياة ، ليقدّمه بنفسه إلى الملك
(فرناندو) .

عفت حاجبيها ، وهي تقول :
- هل تثق بـ (فرناندو) هذا ؟

صمت لحظات ، ثم قال :
- ليس أمامي سوى أن أثق به .. إنه سيحتل
(غرناطة) ، إن أجلا أو عاجلا ، ولست أحب أن ألعب دور
الأسير حينذاك .

زفرت في توتر ، ثم قالت :
- حين .. ستكشف الأيام ما إذا كنت قد أصبت أم
أخطأت .. والآن أن تنام قليلا .. متشرق الشمس بعد
مساءة على الأكثر .

ألقي نظرة أخرى متوترة على الساحة والفرسان
العشرة ، الذين يحرسون مدخل القبو ، ثم غمغم :

- نعم - لابد للمرء من بعض النوم وعاد إلى الفراش ، ولكن النوم أبى أن يرور جفنيه .. ولم يكن هذا حاله وحده ..
لقد قضى رجال الحراسة الليلة كلها في انتباه زائد ، وبأعصاب مشدودة كوتر القوس ، تكاد تتمزق مع أننى صفت
ثم أذن الفجر ، وهدأت الشمس تستعد للشروق ، وانطلقت العصافير تنشد أنشودة الصباح الأبدية ..
وفي تلك اللحظات بالذات يأتي النوم بكل قوته ، ليداعب الحفون المعلقة ، بعد طول سهر وتوتر ..
وترجت الأحفان بعض الشيء ، وخيم هدوء تام على القصر ..

فيما عدا البرج الغربي ..
قفى أعلى البرج تسأل رجلان من رجال الحكيم (همام) . وهم يحملان نفة ضخمة من الحبال ، فربطوا طرفها في حاجر نافذة البرج في إحكام ، ثم ألقيوا طرفها الآخر إلى أسفل ..
وهناك كان يقف (فارس) ، الذى تلقى طرف الحبل ، ثم تشبث به ، وراح يتسلق البرج فى سرعة وخفة ، حتى بلغ نافذته ، فوثب عثرها إلى داخله ، وسأل الرجلين فى اهتمام :

- هل أعديتما كل شيء ؟
أجاباه أحدهما :

- كل شيء على ما يرام .
هبط الثلاثة فى سرعة إلى باب الهرج ، الذى يطل على الساحة ، فتطلع (فارس) من فرجته إلى الفرسان العشرة ، ونخمم :

- ومتى يبدأ العمل ؟
أجاباه أحد الرجلين :

- مع اكتمال شروق الشمس .
لاذ (فارس) بالصمت عدة دقائق ، وهو يراقب الشلق ، حتى هتف أحد الرجلين فى انفعال .
- الآن .

لم يكذبتم عبارته ، حتى اندلعت النيران فى البرج المقابل ، حيث حجرة الحاكم ، وظهر رجل يصرخ فى ارتياح :

- النجدة .. إلى يا رجال .. إنهم يهاجمون الحاكم .
لم يكذب الفرسان العشرة يسمعون هذا الهتاف الاستجدى ، ويرون النيران المنطلعة من النوافذ ، حتى هب ستة منهم لنجدة الحاكم ، فاندفعوا إلى البرج ، فى حين بقي الأربعة الآخرون لحراسة القيو ، فهتف (فارس) :
- انطلقا .

ودفع باب الهرج ، وانقض في مسألة على الفرسان الأربعة ..

وكانت انقضاضته إيذانا ببداية عمل فريق الرجال ، الذي يشكل جبهة الحكيم (همام) ، المعارضة للخائن (جهلان) .. ولم يتصور (فارس) أنهم بهذه الكثرة ..

لقد ظهر رجلان آخران ، أسرعاً يغتلقان باب الهرج الشرقي ، خلف الفرسان الستة ، لسجنهم داخله ، في حين برز أكثر من عشرة رجال ، هاجموا حراس الأسوار ، ورجلان آخران ، انضمّا إلى (فارس) ، في هجومه على الفرسان الأربعة الباقين ..

وكانت خطة (فارس) تعتمد على مباغتته العدو ، وعدم منح الفرسان فرصة كافية ، لجذب الذراع المعدنية ، وإحراق الشيوخ داخل القبو ..

وكان القتال شرساً وعنيفاً ، فالفرسان الأربعة كانوا مقاتلين صناديد ، وكانت ضرباتهم قوية عنيفة ، ولكن (فارس) تصدى لها في قوة وحزم ، وأطاح بسيف أحدهم ، ثم طعنه طعنة نجلاء ، واستدار إلى الثاني ، في نفس الوقت الذي سقط فيه أحد الرجلين المعاونين له ، بطعنة قاتلة من أحد الفرسان ، وعاد (فارس) يبارز رجلين في آن واحد ..

وبارزه الرجلان في وحشية واستماتة ، ولكنه راح يضرب السيفين في تتابع متقن مدهش ، حتى مرق فخذ أحد الرجلين بسيفه ، ثم أدار السيف في الهواء بمهارة مدهشة ، وغرسه في عنق الثاني ..

وفي غضب ، تراجع الفارس الأخير ، هاتفاً :
- لن تريح أيها الفارس الأبيض .. سيفي الشيع كالجرة الأجرب .

واندفع نحو الذراع المعدنية ، فلقى به (فارس) ، هاتفاً :
- ليك أن ..

ولكن الرجل قلز نحو الذراع المعدنية ، وجذبها في قوة ، وصوت (جهلان) يرتفع عبر النافذة :
- إنها خدعة .. خدعة .

وتفجرت المياه عبر فتحات القبو ، وصرخ (فارس) :
- أيها الوغد الحفير .

وظعن الرجل في قلبه تماماً ، ثم سحب سيفه ، وانطلق يحدو إلى داخل القبو ..

كانت المياه تتدفق في غزارة ، وتغمر القبو في سرعة ، والشيوخ مقيد بأغلال معدنية إلى جوار القبو ، ولم يكدر يرى (فارس) ، حتى هتف به :

- ارجع يا ولدى .. ارجع يا (فارس) .. سنغرق مفا
يا ولدى .

هتف (فارس) :

- محال يا عماء .. محال أن أتركك هنا .

انقض على الأغلال المعدنية ، وحاول تحطيمها ،
والشيخ بهتف :

- لا فائدة يا (فارس) .. تراجع يا ولدى .. تراجع .
كنت الأغلال متينة بالفعل ، فتخلى عنها (فارس) .
وراح بضرب الأجزاء التي تثبتها بالجدار ، حتى حطم
أحدها ، ثم انتقل إلى الآخر ..
وغمرت المياه القبو ..

غمرته تمامًا ، حتى أن جسد (فارس) والشيخ
أصبحت تحت مستوى الماء ، و (فارس) يواصل محاولاته
لانتزاع الأغلال المعدنية من الجدار ..
ثم نجح أخيرًا ..

وبأقصى سرعة ممكنة ، حمل الشيخ ، وراح يصيح به
حتى بلغ درجات السلم ، التي تقود إلى ساحة القصر ،
فواصل سياحته إلى أعلى ، وبرز رأسه ورأس الشيخ فوق

سطح الماء والتقط كل منهما نفسًا عميقًا ، ثم هتف
(فارس) :

- لقد نجونا يا سيدي .. نجونا .

أتاه صوت صارم بارد ، يقول :

- ليس بعد يا فتى .

وأمام عينيه مباشرة ، رأى (فارس) كل رجال الحكيم
(همام) ، وقد سقطوا في قبضة جيش (جهلان)
الصغير ، ما بين أسير وقتيل ، ووقف (خوان)
و (كارلوس) أمام مدخل القبو ، وخلفهما الفرسان
الستة ، والحاكم (جهلان) ..

وكان هذا يعني أن (فارس) قد سقط ..
بل سقطت (الأندلس) كلها .



١ - حكم الإعدام ..

ران على ساحة القصر صمت عميق رهيب ، والكل يتطلعون إلى (فارس) والشيخ ، اللذين وقفا ثابتين ، على الرغم من المياه التي أغرقتهما عن آخرهما ، وانعقد حاجبا (جهلان) في غضب ، وهو يدير عينيه في المكان ، في حين التفت (خوان) نفسا عميقا ، ملأ به صدره عن آخره ، وارتسمت على شفتيه ابتسامة شامتة ساخرة ، قبل أن يقطع حبل الصمت ، وهو يشذ قامته ، قائلا :

- أهنيك يا فتى .. لقد فاجأتنا بحق .

وازدادت اهتمامه سخرية ، وهو يتابع :

- صحيح أننا نتوقع قدومك ، ونستعد لعلاقاتك ،
ولكننا لم نكن نتوقع أن تأتى إلينا برجال الحكيم (همام) ،
فنقطف الجميع بضربة واحدة ، ونحصدهم بمنجل واحد .

قال (فارسي) فی هدوء :

— هؤلاء ليسوا الجميع .

قال (خوان) فی حزم :

- إنهم بدارية الخيط ، الذي سيحتري عن آخره ، في أيام
مصدوبات ، بسبب حماقاتك وغرورك .

أجابه (فارس) في صرامة :

- بل بسبب خائن مثل (جهلان) ، الذى أدار ظهره لعرويته ، وسمح لوعدين قشتاليين بإدارة شئونهم ، طمعاً فى ربح زائل وغير مضمون .

1.7

ابن سيم (خوان) في سخرية . وقال :

— أتظنه غير مضمون حقاً ؟!

أجابه (فارس) :

- بل أوقن من أنه كذلك .

ورسم على شظيه ابتعامة ساخرة مماثلة ، وهو

بسمطرد :

- فأميرنا (ابن الأحمر) يعرف كل التفاصيل .. يعرف

أنكم تعدون العدة لهجوم واسع على حدودنا ، ولمحاولة

جديدة لانتزاع مملكة (غرناطة) . آخر ما تبقى لنا من .

(الأنثى) هل ويعلم انكم منها جمون خمس فرى دفعة

واحدة ، من هذه البقطة من (شنتفى) ، وبمعاونة

الخائن (جهلان) .

أطلق (خوان) ضحكة عالية مجلجلة ، وهو يقول :

- عظيم .. عظيم ما تعرفون .. إننا ننوى الهجوم

بہمیں فرقی فحسب .

ثم مال نحو (فارس) ، مستطرذا :

- ولكن المطجاة هي أننا لن نهاجم من هنا يا فتى ..

لقد خدعناكم جميعا ، لنصرف ضربتنا من مكان آخر

لا تتوقعونه ..

واہتسم فی تشف ، مردفا :

- من (بسطة) .

وكانت مفاجأة حقيقية .

مفاجأة مذهلة ..

★ ★ ★

فهيئة الملك (فرساردو) ضاحكا في حذل ، ورفع كأسه

عاليا ، في وجه الملكة (إيزابيلا) ، وهو يهتف

- نخب خطتي العبقريّة ، التي ستستعيد (الأندلس)

كلها ، لتصبح مملكة (قشتالة) العظمى .

قالت (إيزابيلا) في حزم :

- (قشتالة) و (ليون) .

فهيئة الملك (فرناندو) ضاحكا في حذل ، ورفع كأسه

- فيمكن يا عزيزتي (إيزابيلا) . (قشتالة) .

و (ليون) .

ابتسمت في ارتياح ، وتراجعت في عرشها ، وهي

تقول :

- ولكنني اعترف لك بالعبقرية ، فخطتك مذهلة ،

وقادرة على خداع الشيطان نفسه .

ابتسم (فرناندو) في زهو ، وهو يقول :

- أشكرك يا عزيزتي (إيزابيلا) .. إنها خطة عبقرية

بحق ! لفرار (غالا) سيبدو منطقيا للغاية ، وعندما ترسل

خلفها بعض الرجال ، ممن نعتبرهم في بند خسائر

المعركة ، فيقاتلون لاستعانتها ، وهي تسمى إلى مصكر

الوزير ، سيبدو الأمر منطقيا ومقنعا للغاية . وهكذا

يصدقون كل ما ترويه لهم .. ومن الطبيعي أن يصدقوا

قصتها عن الهجوم ، الذي سيبدأ من (شنتلي) ، نظرا لما

سيتضمنه الأمر من تفاصيل منطقية ، تستند إلى دلائل

معقولة واضحة ، وعندما يجمعون جيشهم لمواجهة جيشنا

في (شنتلي) ، نباغتهم نحن بهجوم على (بسطة) .

فنتنزعها منهم ، وتكون نقطة وثب مثالية إلى الهدف .

وبرقت عيناه ، وهو يستطرد :

- إلى (غرناطة) .

هزت (إيزابيلا) رأسها ، وهي تقول .

- أنت داهية بحق .

ابتسم في فخر ، ولكنها تابعت في اهتمام

- وهل تعرف (غالا) دورها جيدا ؟

جرع ما تبلى من كأسه ، ثم مسح شففيه بكفه ، وهو

يقول :

- لقد درست الأمر وحفظته جيدا ، وأنا واثق من قدرتها

على أداء دورها .

قالت في حيرة :

- وكيف أقنعتها بفعل هذا ؟

هز كتفيه ، قائلاً :

- لم يكن أمامها خيار آخر .. لقد أخبرتها أنني سأعدها جزاء خيانتها ، ما لم تنفذ ما أمرها به ، وبمنتهي الدقة ، وأنتى سأمنحها مكافأة مجزية ، في حال نجاحها .

سألته بنظرة ذات مغزى :

- وهل ستفعل ؟

صمت لحظات ، وهو يتطلع إلى كأسه الفارغة ، ثم هز رأسه ، قائلاً :

- من الخطأ العفو عن خائن ، فهذا يشجعه على الخيانة مرة ثانية .

بدأ الارتياح على وجهها ، وهي تقول :

- هل تعنى أن ...

قاطعها في حزم :

- نعم يا عزيزتى (إيزابيلا) .. الجزاء الوحيد الذى ينتظر (غاللا) هو الموت .. لقد أصدرت حكماً بإعدامها ، وهذا يعنى أن (غاللا) قد انتهت يا عزيزتى .. انتهت تماماً ..

★ ★ ★

لم تكد الشمس تشرق على حصن الحمراء فى (غرناطة) ، حتى بدأ الباعة يتخذون أماكنهم فى السوق المحيط به ، ومن بينهم تسأل بالبحر طيور لمقابلة (غاللا) ، التى سألتها بلفتها القشتالية :

- هل أحضرتها ؟

أوما برأسه إيجاباً ، وقال :

- بالطبع .. هل أعددت الرسالة ؟

ناولته رقعة صغيرة مطوية ، وهى تهمس :

- ها هى ذى .

ابتسم قائلاً :

- عظيم .. هل تحوى كل المعلومات ؟

غمضت :

- كلها .

ربط الرقعة فى قدم حمامة من حمام النوع الزاجل فى عناية ، وقال :

- عودى إذن إلى القصر ، واجمعى المزيد من المعلومات ، وسأرسل أنا هذه الرسالة إلى (قرطبة) على الفور .

انفصلا فى سرعة ، وعادت هى إلى القصر ، فى حين شق هو طريقه وسط السوق ، حتى بلغ ربوة عالية على مشارفه ، فابتسم وهو يقول للحمامة :



ويكن فجأة . شعر بيد ثقيلة توضع على كتفه . مع صوت صارم يقول
— سلها أولاً

— هيا يا صغيرتي .. انطلقى إلى (قرطبة) ، وأوصلنى
كل أسرار العرب إلى مليكننا (فرناندو) .
ولكن فجأة ، شعر بيد ثقيلة توضع على كتفه ، مع
صوت صارم يقول :
— سلها أولاً ، فربما تفضل البقاء هنا .
التفت في هلع إلى صاحب الصوت ، ورأى أمامه ثلاثة
من رجال الأمير ، يرمقونه بنظرات صارمة ، وأحدهم يكمل :
— إذ أن أسرارنا لن تذهب إليكم بهذه السهولة .
جفل الجاسوس ، وأطلق الحمامة ، وهو يهتف :
— بل ستذهب إلينا الآن .
انطلقت الحمامة ترفرف بجناحيها مبتعدة ، في طريقها
إلى (قرطبة) ، وهى تحمل الأسرار العربية فى قدمها ،
ولكن أحد الرجال الثلاثة سحب قوسه ، ودسه فى وتر
قوسه ، وأطلقه ..
وسقطت الحمامة ..
وصرخ الجاسوس :
— لا .. لا ..
ثم استل خنجره ، وهم بالهجوم على الرجال الثلاثة ،
الذين استقبلوا انقضاضته بحزم واضح ، وقيدوه فى
إحكام ، ثم قال أحدهم :

- اطمئن أيها الحقيير .. لن نفوت .. إننا نراقب شريكك منذ ساعات ، ونحتاج إلى معرفة كل ما لديك .. هيا بنا .
في نفس اللحظة ، كانت (غالا) تصعد إلى الجناح الذي خصصه لها الأمير ، في أحد أبراج الحصن ، ولكنها فوجئت بالوصيفة (نذيرة) أمامها ، ترمقها بنظرة غاضبة ، وهي تقول :

- ما الذي أعطيت له باع الطيور ؟
انعقد حاجبا (غالا) في شدة ، وهي تقول :
- لا شأن لك بهذا .

وواصلت طريقها في صرامة ، ولكن (نذيرة) استوقفتها ، قائلة :
- إنها أسرارنا .

التفت إليها (غالا) بنظرة حادة ، فاستطردت (نذيرة) في حدة :

- نعم .. هي أسرارنا .. لقد سمح لك مولاي بالتجوال هنا ، فدرست كل ما تزينه ، وسجلته على رقعة من الجلد ، ثم سلمته لذلك الجاسوس . أنا أعرف هذا .

زمجرت (غالا) ، قائلة :
- اصمتي أيها المافونة .

هتفت (نذيرة) :

- بل أنت جاسوسة . جاسوسة قذرة وفجأة ، استلت (غالا) من طيات ثيابها خنجرًا ، وهي تقول :
- أيتها العربية الحقييرة .
وانقضت عليها في وحشية ، فأمسكت (نذيرة) معصمها ، لتمنعها من طعنها ، وهي تهتف :
- (إن فقدت على حق أنت جاسوسة .

هتفت (غالا) ، وقد استحالت إلى وحش كاسر .
- بالطبع أيتها الغبية .. هل تصورت أنني سأخون (قشتالة) من أجلكم ؟ .. من أجل بعض العرب .. لا أيتها المرأة .. لو أنك تصورت هذا فأنت واهمة .. لقد قتل فارسكم الأبيض الرجل الوحيد الذي أحببته ، في عمري كله .. قتل (رودريك) (*) . وبومها أقسمت أن أثار لحبيبي ، وأن أقتل (فارس) .. ولكن الفكرة لم تثبت أن تطورت في أعماقي ، وفقرت الانتقام من العرب كلهم .. ستدفعون جميعًا ثمن حياة (رودريك) . ستدفعون جميعًا الثمن .

ولكن (نذيرة) قاومتها بكل قوتها : وهي تصرخ :
- النجدة .. النجدة يا رجال .

(*) راجع قصة (جاسوس لوطية) المعامرة رقم (١)

إلا أن (غالا) انتزعت معصمها من يد (نذيرة)
وغرست الحذر في قلبها وهي تهتف في وحشية
جنونية :

- جذبها أيتها العربية حبيبها من قشتالية
جحتت عينا (نذيرة) في شدة . وشهقت شهقة
أحيرة ، ثم هوى رأسها على صدرها ، وسقطت جثة
هامدة ..

وفي مشوة ، بهتت (غالا) ، ورفقت عيناها في
وحشية ، وهي تقول :

- فسكوسي أول بعث أيتها العربية ، وبعدك ي
وقبل أن سم عبرتها ظهرت الأميرة (جميلة) بعة
امامها ، وسرعت تحفر حفرها ، وهي تهتف في ارتباك
زائف

.. فسكوس قتلوا (نذيرة) يا مولاتي .. جاسوسة
قتلتها وهربت ، قبل أن أتبين ملامحها .
انعقد حشا الأميرة (جميلة) في غضب هادر ، وهي
تقول :

- هل تعلمين ما الذي فعله (نذيرة) ، بالنسبة لي ؟
تطلعت إليها (غالا) لحظة في حيرة ، ثم غمغت
- مولاتي

ولكن (جميلة) تابعت في حزم ، وقد تجمعت بعة
غاضبة كبيرة في عينيها :

- لقد توفيت أمي مع مولدي ، وربتي (نذيرة) ،
وكانت بالنسبة لي أما رحيمة حنون ، غمرتني بعطفها
ورعايتها منذ مولدي ، وعبر طفولتي وصباي وشبابي .
ثم التقى حاجباها في غضب ، وهي تستطرد :

- وأنت قتلتها الآن .
قالت (غالا) في توتر :

- قلت لك : إن جاسوسة ..
قاطعتها الأميرة في غضب :

- أنت قتلتها يا (غالا) .. قتلتها أيتها القشتالية
الحقيرة .. هل تعلمين ما الذي فعله هذا ؟
تطلعت إليها (غالا) لحظة ، ثم قالت في صرامة :

- يعني أن التوقف عمار مستحيلا الآن .
واستلت خنجرها مرة أخرى ، وهي تنفض به على
الأميرة ، صارخة :

- وأن الأمر سيتكرر معك .
صرخت الأميرة في صرامة :

- لا يا (غالا) .
وفجأة ، أبرزت يدها من خلفها ، وهي تمسك سيفها
قويا ، هوت به على عنق (غالا) الجميل ، وهي تستطرد :

- بل يعنى أننا سنطبق قاعدة العدل الأولى
واعتمدت فى حزم ، وهى تتطلع إلى جثة (غالا) ، ثم
رفعت رأسها فى اعتداد ، مضيفة :
- العين بالعين . والسن بالسن .. والبادى أظلم .
وانهمرت دموعها على وجنتيها ..
★ ★ ★

اتسعت عيننا (فارس) والشيخ فى دهشة بالغة ،
وتبادلا نظرة أقرب إلى الذهول ، وهتف (فارس) :

- فى (بسطة) ؟

أما الشيخ ، فقال فى حذر :

- أهى خدعة أخرى ؟

أطلق (خوان) ضحكة عالية قوية ، وقد رأى له ذلك
الذهول ، الذى ارتسم فى ملامحهما ، وقال متباهيا متشفيا :
- لم تكن هناك سوى خدعة واحدة ، سقط الجميع فيها ،
كما يسقط الذباب فى وعاء من العسل .. خدعة وضعها
مليكننا (فرناندو) بخبرته وحكته ، مستغلا شهامتكم
العربية ، وسرعة تصديقكم وتأثركم بدموع النساء ،
وارسل إليكم (غالا) ، مع قصة متقنة ، تدفعكم لجلب
جيوشكم إلى هنا ، فنضربكم نحن فى بقعة أخرى .
عقد (فارس) حاجبيه ، وهو يقول :

- يا للحقيرة !

شمغم الشيخ :

- كنت أتوقع هذا .. لا يجب أن يثق المرم فى أعدائه ،
مهما أبدوا من التعاطف والصدق معه .

قال (فارس) فى حزم :

- صدقت يا عماء .. لن أنسى هذا ما حبيت .

فهقه (خوان) ضاحكا ، وقال :

- لن تنسى هذا ؟! .. يا لها من عبارة متفائلة طريفة ..

هل تتصور أنك ستحيا ، لتضع درسنا جديدا فى ذاكرتك ؟

تطلع (فارس) إلى عينيه مباشرة ، وهو يقول :

- سأحيا بإذن الله ، حتى أبصق بنفسى فى وجه مليكم

المحبيب .

انعقد حاجبا (خوان) ، وهو يقول :

- أخطأت يا فتى .

ثم مال نحوه ، مستطرذا :

- صحيح أن الملك (فرناندو) طلب الإبقاء على حياة

الوزير ، حتى يلتقى به بنفسه ، إلا أن هذا الأمر لم ينطبق

عليك ..

وبرقت عيناه ، وهو يضيف فى شماعة :

- لقد أصدر أوامره بإعدامك .

قال (فارس) فى سخرية :

- حقا ؟

قال (خوان) في حدة :

- ألا بعنك أمر موتك ؟

هز (فارس) كتفيه ، وقال :

- الأعمار بيد الله (سبحانه وتعالى) ، ولكن ينبغى أن

تعلم أولاً أنك مخطئ .

قال (خوان) في عصبية :

- بشأن إعدامك ؟

هز (فارس) رأسه في هدوء ، وقال :

- بل بشأن رجال الحكيم (همام) .. إنهم أكثر

مما تتوقع بكثير .

بدأ التوتر على وجه (جهلان) ، واندفع قائلاً :

- ما الذى تعنيه يا فتى ؟

لم يكذب عباره ، حتى انطلقت هتافات رهيبه خارج

القصر ، وراح العشرات يضربون أبوابه بأسلحتهم ،

فابتسم (فارس) ، وقال :

- هذا ما أعنيه .

شحب وجه (جهلان) في شدة ، وهو يقول في شحوب :

- إنهم ثائرون .

واحتقن وجه (خوان) ، وهو يهتف بـ (فارس) :

- ما هذا الذى يحدث ؟ .. ما الذى يعنيه ؟

أجابه في صلابه :

- يعنى أن أحدا لم يعد يحتمل خيانة (جهلان) .

ولا تواجد قساليين داخل القصر ..

لقد بدأت الثورة يا رجل .

صرخ (جهلان) في رعب :

- لا .. لا .

ثم انطلق يعدو إلى برج ، في حين بدأ الغضب على

وجه (خوان) ، وهو يقول .

- أنت .. أنت دفعتهم إلى الثورة .

هز (فارس) رأسه نظياً ، وقال :

- بل هي كامنه في أعماقهم يا رجل ، وتنتظر اللحظة

المناسبة لتفجر ، وتعلن عن نفسها .. ووجودك منحهم

القوة الكافية . كل ما فعلته أنا هو أن أشعلت الفتيل

فحصب .

ازداد احتقان وجه (خوان) ، وتراجع يحدق في

(فارس) والشيخ بعقت وكراهية ، فقل الشيخ في هدوء

- من الحماسة أن تواصل القتال ، عندما تصبح الهزيمة

حتمية .

صاح به (خوان) :

- اخرس أيها الوزير .

ولكن الشيخ تابع :

- والحكيم هو من يعلم متى يحنى جبهته للعاصفة .

صرخ (خوان) :

- قلت لك : اصمت أيها الوزير .. اصمت .

ثم انعقد حاجباه في شدة ، وهو يستطرد :

- ولكن حتى هذه الثورة ، لن تمنعني من تنفيذ الحكم ،

الذي أصدره مولاي .

والتفت إلى زميله ، هاتفا :

- (كارلوس) .. استل سيفك .

استل (كارلوس) سيفه على الفور ، فتابع (خوان)

في غضب صارم ، وهو يشير إلى (فارس) :

- نفذ حكم الإعدام في الفارس الأبيض .

وفي حزم ، اتجه (كارلوس) نحو (فارس) ، ورفع

السيف ، وهوى به في قوة ، و ..

وعلى صدر (فارس) .

★ ★ ★

٩ - الثورة ..

فجأة ، هب (مهاب) من رقادته ، وهتف :

- أين (فارس) ؟

رثت الحكيم (همام) على صدره في رفق ، وهو

يقول :

- اهدأ يا رجل . اهدأ .. (فارس) ليس هنا .

تطلع إليه (مهاب) في شك ، وهو يقول :

- من أنت ؟ وأين ذهب (فارس) ؟

اهتسم الحكيم ، وقال :

- عجباً !.. ألا تذكرني يا قائد الفرسان ؟

هتف (مهاب) ، وهو يحدق في وجهه :

- قائد الفرسان ؟ .. قليلون هم من يعرفون هذا اللقب ،

ومن ..

ثم بتر عبارته بغتة ، وتهللت أساريره ، وهو يهتف في

حرارة :

- الحكيم (همام) .. يا لسعادتي بروضتك .. إني لم

أعرفك للوهلة الأولى .. لقد طعنت في السن ، وأصبحت

لحيتك بيضاء كثة ، و ...

بتر عبارته مرة أخرى ، وقال في توتر :

- ولكن ماذا تفعل هنا ؟ .. وأين (فارس) ؟

تتهّد (همام) ، وقال :

- أنا أقيم في (شنتلي) منذ عدة أعوام يا رجل ، ولقد
لجأ إلى (فارس) ، في محاولة لإتفانك ، بعد أن تلوّث
جرحك ، وأصابك الحمى ، وهو الآن في قصر
(جهلان) ، يحاول إنقاذ الوزير .

هتف (مهاب) في زعر :

- وحده ١١

هز الحكيم رأسه ، قائلاً :

- كلا .. ليس وحده . لقد قرّرنا مؤازرته بثورة كاملة .

عقد (مهاب) حاجبيه ، وهو يتعمّم :

- قرّرتم ١٢

أوما الحكيم برأسه ، وقال :

- نعم يا قائد الفرسان .. إننا نعلم أن (جهلان)

خائن ، يتعامل مع الفشتاليين ، ويسعى لمعاونتهم على

انتزاع (الأندلس) الصغرى ، ولقد أعدنا أنفسنا ،

واستعدنا للثورة عليه ، وعزله من منصبه ، وكنا ننتظر

اللحظة المناسبة .

وتنهّد مرة ثانية ، ولوّح بذراعيه ، وهو يبتسم قائلاً :

- وجاء (فارس) ، وقرّرنا أن تبدأ الثورة اليوم .

غمغم (مهاب) في توتر :

- ولكنه وحده .

اعتدل (همام) ، وقال :

- (فهد) معه .

هتف (مهاب) :

- (فهد) .. أنت واثق من هذا ؟

أوما برأسه إيجاباً ، وقال :

- نعم . انى لم أفهم في البداية ما يعنيه (فارس) .

بطلب وجود (فهد) في القصر . ثم انى (فهد) إلى

هـ . جاء مصاب والدماء تفرق حسده كنه يقرباً .

وعندئذ فهمت . ولقد داويت (فهد) ، وطلبت منه البقاء

للراحة . وذهبت لأحضر له بعض الدواء ، ولكنى عدت

فلم أجده .

ابتسم (مهاب) في ارتياح ، وأستر عييه ، وهو

يغمغم :

- لقد ذهب إليه .

هز الحكيم رأسه ، وهو يقول :

- عحيب هو (فهد) هذا . انه محلص ووثنى . إلى

حد يجعلك تتمنى لو ان ..

بتر عبارته بعينه . عديم لاحظ اسرحاء حمد

(مهاب) ، وقال في قلق :

هل تسمعنى يا قائد الفرسان ؟

ولكن (مهاب) لم يكن يسمعه ..
لقد اطمئن على أمر (فارس) ، ثم عاد إلى غيبوبته ..
غيبوبته العميقة ..

★ ★ ★

رفع (كارلوس) سيفه في ثقة ، وهوى به على صدر
(فارس) ، إلا أن هذا الأخير تحرك في مرونة ، وهو
يستل سيفه ، ويصد به سيف (كارلوس) ، قائلا :
- عندما تشد قتل رجل ، تأكد من أنك قد جردته من
سلاحه أولا .

ثم انقض على (كارلوس) ، وضرب سيفه في قوة ،
وأزاحه بعيدا ، قبل أن يضرب بطن هذا الأخير بسيفه .
وجحظت عينا (كارلوس) ، وهو يمسك معدته ، في
نفس اللحظة التي اقتحم فيها الثارون أبواب القصر ،
واندفعوا إلى ساحته ، بعد أن عاونهم بعض الموالين لهم
من الداخل ، على فتح الأبواب ، فتراجع (خوان) ،
هاتفا :

- اللعنة .

ثم صاح في الفرسان الممتة :

- اقتلوا الفارس الأبيض .

وترك الفرسان ينقضون على (فارس) ، وهو يعدو

متجها إلى البرج الغربي ، واستقبل (فرس) الفرسان
المتة بسيفه ، وبدأ له أنه من المستحيل أن يقاتل سنة من
الفرسان الأشداء في آن واحد ، ولكنه ضرب بسيفه يمينه
وبسارا ، قبل أن يندفع إليه عشرة من خيرة فرسان
(همام) ، وهم يهتفون :

- اتركهم لنا أيها الفارس .

واشتبك الفرسان العشرة مع فرسان (جهلان) السنة .
في نفس الوقت الذي اقتحمت فيه كوكبة من الثارين البرج
الشرقي ، الذي يقيم فيه (جهلان) ، وراح هذا الأخير
يصرخ من شرفه ، التي التهمت النيران نصفها .
- لا لا تسمحوا لهم بالدخول أيها الحراس .
اقتلوهم اقتلوهم عن آخرهم . لا تسمحوا لهم
بالوصول إلى .

ولكن الثارين أزاحوا الحراس عن طريقهم ، واندفعوا
إلى البرج ، و (جهلان) يصرخ في حنونة .
- لا لا تسمحوا لهم . إنهم سيقتلونني لا
وأحاط به الثارون ، فجحظت عيناه ، وتراجع
صارخا :

- لا .. ابتعدوا عني .. ابتعدوا .

ومع تراجعهم ، ارتطم بحاجز الشرفة نصف لمحترق .



استقبل (فارس) سيف (خوان) على سيفه وأعدده بصربة قوية

فحطم الحجر . وهوى (جهلان) معه . وهو يطلق صرخة رهيبة . انتهت مع ارتطامه بالأرض . وتحطم جسده بعدما . وفي هذه الأثناء كان (خوان) يعدو صاعدا إلى أعلى البرج . و (فارس) يطارده . وهو يقول في صرامة :

- استسلم أيها القشتالي لا فائدة من الفرار إلى برج عال .

صرخ (خوان) :

- محال أيها العربي .. محال .. إنتى أفضل الموت . ولكن لكل شيء نهاية ..

ولقد بلغ (خوان) نهاية البرج .

وهذا أسل سيفه . ووقف يلهث . في انتظار صعود (فارس) ..

وعندما بلغ (فارس) نهاية البرج . انقض عليه (خوان) ، صانحا :

- الآن حانت نهايتك أيها العربي .

استقبل (فارس) سيف (خوان) على سيفه . وأعدده بصربة قوية . ثم وثب إلى تلك الحجرة الصغيرة . في قمة البرج . واستدار يواجه (خوان) . الذى بارأه في براعة . وهو يقول في حدة :

- لن تدح أيها العرس إنتى تستخدم السيف من رمن يناهز عمرك .

تفادى (فارس) ضربته ، وهوى عليه بسيفه ، قائلاً :
 - المهم هو كيف تستخدمه أيها الفشتالى .
 كان الاثنان يقاتلان ببراعة ومهارة ، حتى أن المبارزة
 بدت متكافئة للغاية ، وهتف (خوان) فى عصبية :
 - من الواضح أنك تلقيت تدريبات جيدة أيها العربى .
 أجابه (فارس) ، وهو يشب نحوه ، ويدفع سيفه إلى
 صدره :
 - بل هى ممتازة أيها الفشتالى .
 تلقى الفشتالى السيف بسيفه ، ودفعه بعيداً ، وهو
 يقول :
 - ليس إلى هذا الحد .
 وفى نفس اللحظة ، تعالى هتاف الثائرين ، يعلن نجاح
 ثورتهم ، فتولف (خوان) لاهثاً ، وهو يقول فى حدة :
 - من الواضح أن خطتك قد نجحت ، وبأكثر مما تتصور
 أيها العربى .
 خفض (فارس) سيفه ، وهو يقول :
 - بل هو ما تصورته بالضبط أيها الفشتالى .. أنت
 لا تعرف الروح العربية .. قد بصمت الشعب ويحتمل
 طويلاً ، ولكنه عند ما يثور ، لا تتجح قوة فى الأرض فى
 منع هذه الثورة ، حتى يستعيد حقه .

مط (خوان) شفتيه ، وقال :
 - هراء .
 ثم انقض على (فارس) بفتة ، مستطرداً :
 - إنما هو ضعف (جهلان) .
 صذ (فارس) سيفه ، ثم دفعه بعيداً ، قائلاً :
 - الطفأة دائماً ضعفاء ، مهما تصوروا العكس .
 تراجع (خوان) بحركة مباغتة ، ثم اختطف مقعداً
 خشبياً صغيراً ، يستخدمه فى المعتاد رجال حراسة الهرج ،
 وألقاه نحو (فارس) ، هاتفاً :
 - فكرة غبية كصاحبها .
 تفادى (فارس) المقعد بانحناء جانبية ، فانقض عليه
 (خوان) ، صارخاً :
 - خذها منى أيها العربى .
 تراجع (فارس) فى سرعة ، ليتفادى الضربة
 الموجهة إلى صدره ، ولكنه ارتطم بحاجز
 النافذة فى عنف ، وشعر بجسده يتراجع إلى الفراغ ، ثم
 هوى ..
 هوى من الهرج الغربى ..

تطلع الأمير (محمد بن الأحمر) إلى جثة (نذيرة)
في أسى ، ثم هز رأسه في أسف ، وهو يقول :
- يا للمسكينة ! لم يتوقع مخلوق واحد أن تأتي
نهايتها على هذا النحو . لقد كنت أعتبرها أما لابنتي
(جميلة) .

ثم نقل بصره إلى جثة (غلا) . وقال :

- ولكن القاتلة نالت جزاءها .

ورفع عينيه إلى ابنته ، متابعاً :

- بيد ابنتي .

أجهشت (جميلة) بالبكاء ، وهي تخفى وجهها بين
كففيها ، فهض الأمير ، واحتوى ابنته بين ذراعيه ، وربّت
عليها في حنان ، قائلاً :

- لا تبكى يا بنيتي .. إنه قدرها .

قالت في مرارة :

- لست أبكى (نذيرة) وحده ، وإنما أبكى ما فعلته
يا أبتاه .

ثم انهارت مستطردة :

- لقد قسستها القتل امر بغيض يا أبى . بغيض
للفأية .

تنهد وهو يضمها إليه في حنان ، مغمغماً

- أعلم هذا يا بنيتي .. أعلم هذا .
وحاول أن يبتسم ، وهو يستطرد :

- ولكنك فعلت ما ينبغي فعله يا بنيتي ، فمن قتل يقتل ،
ولو بعد حين .

قالت باكياً :

- ليس بيدى يا أبى .

قال في خفوت :

- الله سبحانه وتعالى أعلم وأحكم يا بنيتي .

ثم أشار إلى وصيفاتها ، فعاولها في العودة إلى
جناحها ، وهو يقول لهن في حنان مشلق :

- خفن عنها .

وراقبها ببصره حتى غادرت قاعة الحكم ، ثم التفت إلى
وزيره ، وقال :

- ما الموقف الآن ؟

أجاب الوزير :

- لقد ثبت أنها خائنة ، لذا فلا ينبغي أن نصديق حرفاً
واحداً مما قالت .

أجاب الأمير :

- ليس الأمر بهذه البساطة أيها الوزير ، فما ذكرته
يتفق إلى حد كبير مع الكثير من المعلومات ، التي جمعها

جواسيسنا من (قرطبة) . فصحيح أن القشتاليين
يجمعون فرقهم الآن ، ويعذون لهجوم عنيف مركز ،
ولكننا نجهل أين ستكون ضربتهم ..

قال الوزير :

- هذا لا يعني أنها ستكون في (شنتلي) يا مولاي .

هز الأمير رأسه ، وقال :

- أعلم هذا ، ولكن إعداد الجيوش وتحريكها يحتاج إلى

الكثير من الوقت أيها الوزير ، والضربة التي يعدها

القشتاليون قوية ، وتحتاج إلى حشد الكثير من قوتنا في

ضربة اعتراضية تطوقها قوة ، وهذا لن يأتي أبدا ، لو أننا

شنتنا قوتنا بطول الحدود .

وانعقد حاجباه ، وهو يستطرد في حزم .

- لا بد أن نعرف أين ستأتي الضربة أيها الوزير ..

أين ؟

وضرب سطح المنضدة المجاورة له بقبضته ، مكررا

في توتر شديد :

- أين أيها الوزير ؟

ولم يحر الوزير جوابا ..

★ ★ ★

تأملت عينا (خوان) في فرحة غامرة ظافرة ، عندما

شاهد (فارس) ، يسقط من نافذة البرج ، وصرخ في

سعادة جنونية :

- انتصرت .. هزمتك يا فارس العرب .

واندفع إلى النافذة ، يتطلع منها إلى أسفل ، وهو يتوقع

روية جسد (فارس) . وقد تهشم فوق الصخور ، ولكنه

لم يكد ينظر ، حتى تفجرت صرخة في جسده كله :

- لا .

والتقى حاجباه في عنف ، عندما وقع بصره على

(فارس) ، الذي تعلق بذلك الحبل ، الذي استخدمه

للسعود إلى البرج مع الشروق ، وصرخ :

- لا .. لا يمكنك أن تفعل هذا

كان (فارس) قد نجا بمعجزة حقيقية ، عندما رأى

الحبل أمامه ، وهو يسقط من النافذة ، وتذكر أنه لم يرفعه

بعد صعوده .

واستجمع (فارس) قوته كلها ، ودفع جسده نحو

الحبل ، وتشبث به .

وعلى مسافة ثلاثة أمتار من النافذة ، تعلق جسد

(فارس) ..

ثم ظهر وجه (خوان) ، وأطلق صرخته ، وحدق في

وجه (فارس) بكل الكراهية والمقت في أعماقه ، قبل أن

يرفع سيفه ، قائلا :

- فليكن أيها العربي .. لن يلزمك الحظ إلى الأبد .

وانعقد حاجبا (فارس) في شدة ، عندما رأى

(خوان) ينحني إلى الأمام ، ويمسك تلك الحلقة المعدنية ،

المثبت فيها طرف الحبل ، ثم يبدأ فى قطعه بسيفه ، قائلاً
فى تشف واضح :

- هيا .. أرنى كيف تتجو الآن .

ولم يتردد (فارس) لحظة واحدة ..

لقد أدار سيفه الفضى فى يده ، وقذف به (خوان) بكل
قوته

وانفرس السيف فى قلب (خوان) مباشرة ، فانتسعت
عينا القشتالى فى ألم وارتياح ، وهمهم بكلمة غير
مفهومة ، ثم سقط داخل البرج جثة هامدة ..

ولكن عينا (فارس) اتسعتا فى قلق أكثر .

لقد رأى الحبل ، وقد قطع سيف (خوان) نصفه
تقريباً ، وبدأ النصف الثانى يتمزق مع ثقله ..

وراح (فارس) يتسلق الحبل فى سرعة ، وهو يأمل
أن يبلغ حافة النافذة ، قبل أن ينقطع ..

ولكن ، ليس كل ما يتمناه المرء يدركه ..

لقد كان (فارس) على مسافة نصف المتر من حافة
النافذة ، ويمد يده إليها ، عندما انقطع الحبل بغتة ..
وعاد جسده بهوى .

★ ★ ★

١٠ - الختام ..

فجأة ، امتنت يد قوية عبر النافذة ، ولهضت على
محصم (فارس) ، لتمنعه من السقوط ..

ورفع (فارس) عينيه إلى أعلى ، ثم هتف فى سعادة
حقيرة :

- (فهد) .

بدأ ارتياح واضح فى عيني الزنجرى الصملاق ، وهو
يجذب (فارس) إلى داخل البرج ، ثم ينتزع السيف الفضى
من قلب (خوان) ، ويعيده إليه ، فهتف (فارس) فى
الفرح :

- (فهد) .. وأخى الحبيب .. كنت أعلم أنك ستظهر
فى الوقت المناسب .. كنت واثقاً من هذا .

ابتسم (فهد) فى سعادة ، نون أن تتخرج شلتاه عن
حرف واحد ، ولاحظ (فارس) الضمادات التى تملأ
جسده ، فقال فى توتر :

- رباه !! ماذا أصابك يا صديقى ؟

أمسك (فهد) كتفيه ، وهو يبتسم فى وجهه ، وكأنه
يطمئنه على ما أصابه ، ثم انحنى أمامه فى احترام ،
فجذبه (فارس) ، قائلاً :

- لا يا (فهد) .. لا يا أخى .. لا ترفع أمامى قط .

تعالى هتاف الثائرين الظافر مرة أخرى ، فقال (فارس)
في سعادة :

- هل تسمع يا (فهد) ؟ .. هل تسمع هتافهم ؟ .. لقد
نجحنا يا (فهد) .. نجحنا .. هيا بنا نشارك الثوار
فرحتهم .

وأسرع بهبط في درجات السلم عدوا ، ووجد الثوار
يحيطون بالشيخ ، فأسرع إليه ، هاتفا :

- انتصرونا يا سيدي .. هزمنا القشتاليين مرة أخرى
يا عماء .

أجابه الشيخ في رصانة :

- ليس بعد يا ولدي .. لقد كشف لنا أحققهم خطتهم
الحقيقية ، وعلمنا أن نبلغ مولاي (ابن الأحمر) بها ، حتى
يتخذ ما يلزم لصد هجوم القشتاليين .

ارتفع صوت يقول :

- اترك لنا هذه المهمة أيها الوزير .

استدار الشيخ إلى مصدر الصوت ، وابتسم وهو يقول ،
في لهجة تحمل رائحة السعادة الحقة :

- الحكيم (همام) .. يا لسعادتي لرؤيتك .

تصافحا في حرارة ، وقال الحكيم بابتسامة واسعة :

- لدى هنا وسائل عديدة ، لإبلاغ مولانا الأمير بكل
شيء يا سيدي الوزير .

ثم اتهمت ابتسامته ، وهو بضيق :
- ولكننا سنحتفل الليلة بانتصارنا ، وبمصرع الخائن
(جهلان) .

غمغم الشيخ :

- أخشى أن ..

قاطعه (همام) بابتسامة كبيرة :

- لا .. لن أقبل أية اعتذارات .. إنها أول مرة نجتمع
فيها ، أنت وأنا ، وقائد الفرسان (مهاب) ، منذ ذلك اليوم
المؤسف في (قرطبة) .

ابتسم الشيخ ، وقال :

- حسن .. إنك لم تترك لي فرصة واحدة .

ومال (فارس) على الحكيم ، يسأله في اهتمام :

- وبالمناسبة .. كيف حال (مهاب) ؟

أجابه الحكيم :

- إنه في خير حال ، وأظنه يستطيع مشاركتنا احتفال
النصر الليلة .

هتف (فارس) في سعادة :

- إنن فهو بخير .. يا لسعادتي ! .. هل تسمع

يا (فهد) ؟ .. (مهاب) بخير .

والتفت يبحث عن (فهد) ، ثم انعقد حاجباه في شدة ..

لقد فعل (فهد) ما يلعله عادة ..

اختفى ..

اختفى تمامًا ..

★ ★ ★

، اللعنة ! .. ،

هكذا هتف الملك (فرناندو) ، وهو ينقى كأسه في

عنق ، فارتطمت الكأس بالجدار ، وانسكب ما بها من

خمر ، فقالت (إيزابيلا) في صرامة :

- هذا لا يليق بالملوك .

صاح بها محنقًا :

- اصمتي .. لم أعد أحتمل مواعظك .

هتفت به ،

- ماذا تقول أيها الملك ؟

صرخ في غضب :

- أقول : إنني سئمت كل هذا .

وبدت عيناه محمرتين ، وهو يستطرد في مرارة :

- هؤلاء العرب الأوغاد كشفوا خططنا .

اتسعت عينها في ملع ؟ وهي تهتف :

- ماذا ؟

نهض يسترجع كأسه ، ويصب فيها الخمر ، وهو يقول :

- نعم يا ملكة (قشتالة) و (ليون) .. لقد كشف

العرب خططنا .. ذهبنا إليهم بخمس فرق ، فأنقضوا علينا

بسيح ، وكادوا يفتكون بنصف جيشنا ، لولا أن انسحب

الجميع بأقصى سرعة ، وراحوا يعدون كالخراف .

هتفت في ارتياح :

- يا إلهي !

جرع كأسه دفعة واحدة ، وهو يقول :

- كل هذا لأننا نفكر إلى الجواسيس الماهرة .

والنفت إليها ، مستطردًا في حدة :

- هل تعلمين أنهم قاموا بثورة على (جهلان) ..

حليفنا الأول ، وانتزعوه من عرشه ، وقضوا عليه .

وكشفوا خططنا كلها ، دون أن يبلغنا هذا الأمر ، إلا بعد أن

حاصر العرب فرقنا الخمس في (بسطة) .

ارتجفت ، قائلة :

- إلى هذا الحد ؟

قال في مرارة ، وهو يصب كأسًا أخرى :

- نعم .. إلى هذا الحد .. إلى الحد الذي أصبحنا معه

عاجزين عن النزاع مملكة (غرناطة) ، على الرغم من

أننا نمتلك الآن ثلاثة أرباع (الأندلس) .

وجرع الكأس الثانية دفعة واحدة ، ثم اقترب من

النافذة ، وقال :

- ولقد قتلوا (غالا) .

اتسعت عيناها ، وهي تقول :

- قتلوها ؟!

ألقى الكأس في عنف ، صارخا :

- نعم .. قتلها هؤلاء العرب .

وانعقد حاجباه في شدة ، وهو يستطرد :

- ومازلت أصر على رأيي ، الذي تخالفينه كثيرا .. (إننا

لن نظفر بمملكة (غرناطة) ، إلا بعد أن نظفر بذلك الفارس .

غمغمت :

- الفارس الأبيض ؟!

أطلق من أعماق صدره زفرة قوية ، وهو يقول :

- نعم .. فارسهم الأبيض ، مع معلم السلاح ، وذلك

الزنجي ، والوزير السابق .. إنه ذلك الطريق ، الذي يحبط

خططنا يوما ، والذي أقسم أن أضع حدا لأعماله ..

وعاد حاجباه ينعقدان في شدة ، وهو يضيف :

- ولن يهدأ لي بال ، حتى أضع قبضتي على ذلك

الفارس ..

وكان هذا إيذانا بحرب جديدة ، تخوضها (قشتالة) ضد

فارس واحد ..

فارس (الأندلس) .

★ ★ ★

[تمت بحمد الله]



فارس الأندلس

من البطولات العربية
في أخرج فترة للعرب في أسبانيا

الهاربة

- ماسر القشتالية، التي فزت من (قرطبة) إلى (غرناطة) ؟ ..
- كيف أعدّ القشتاليون ضربتهم القادمة ؟ .. وكيف ؟
- هل ينجح (فارس) في التصدي للقشتاليين، أم تخذله تلك (الهاربة) ؟
- اقرأ التفاصيل المثيرة، وعش مع البطولات العربية، في عصر (الأندلس).

الرمح المكسور

الرواية القادمة :
المؤلف



د. فيصل فاروق

المؤسسة العربية الحديثة
الطبع والنشر والتوزيع
بمقرها في الرياض - المملكة العربية السعودية - 11564

التميم
وما بعد
في سائر أسرار